سومر شحادة

الحاصل على جائزة نجيب محفوظ
للرواية العربية ٢٠٢١

منازل الأمس

رواية

سومر شحادة

منازل الأمس

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© سومر شحادة ٢٠٢٣
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

منازل الأمس: رواية / سومر شحادة - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778638080
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٩٤٧ / ٢٠٢٢

لوحة الغلاف إهداء كريم من الفنانة السورية جنان داوود
تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

الفصل الأول
البدايات والنهايات

الفصل الثاني
حكاية سليم

الفصل الثالث
البدايات والنهايات

الفصل الرابع
حكاية وداد

إلى جنان ورافي

«الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذُّ لها الإقامة في منزل الأمس».

جبران خليل جبران

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وحوادثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وحوادث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومجرد من أي قصد.

الفصل الأول

البدايات والنهايات

كارم

صباح يوم وفاة الرئيس لا أعرف أيًّا منا بدأ يسير باتجاه الآخر. عندما خرجتْ من بيتها كنت أقف في مدخل شارع بور سعيد باتجاه ساحة اليمن، وأتحضَّر للسير وراءها. وقد مشتْ بالفعل خطوات إلى الأمام، ثم وقفتْ ونظرت داخل عينَي؛ عندئذٍ أشرقت نسرين في حياتي.

* * *

كانت امرأة مختلفة لا يبدو أن لجمالها حدًّا، كما لو أنها خلال عزلتها كانت تجعل من نفسها امرأة خاصة لا تقاوَم. فتنتني بتسريحة شعرها الفرنسية، وبلباسها الفضفاض الذي جعلها تبدو مرتاحة في حركتها. لم تكن ترفع قدميها وهي تمشي، بالكاد كانتا تعلوان عن الأرض بقدر ما يتيح لجسدها أن يخطو تلك الخطوات الرشيقة. ولشدة بياضها كان عنقها يشفُّ عن عروق زرقاء، شعرتُ بأنها تنتمي إلى عالم لم أكن لأفترض وجوده. وأدركتُ بعد سنوات من العيش معها لماذا يشبِّهون المرأة الرقيقة بالفَراشة التي عليك أن تحذر وأنت تمسكها بيديك كي لا تهشمها. كذلك عليك أن تترك للمرأة التي تحبها الحرية في الاختيار حتى لو قررت أن تبتعد عنك. وأعزي نفسي بخسارتي لنسرين بأنها من النساء اللواتي ليس بوسع المرء إلا أن يخسرهن.

كنت أعيش بمفردي في غرفة في المشروع الأول، وشعرتُ برغبة قوية في أن أكون ملاكها الحارس. لم تكن لديَّ أعمال تشغلني عنها، وبدأتُ أتبعها أينما مضت منذ انتبهتُ إليها في الجامعة. كنت أريد فقط أن أتعرف إلى عالمها، وكم بدا عالمها بسيطًا! كانت تخرج من بيتها في مدخل شارع بور سعيد باتجاه ساحة اليمن وصولًا إلى الجامعة، تمضي نهارها بين الصفوف وركن تعتزل فيه، ثم تعود إلى المنزل. وكان يزورها رجل ضخم الجثة يومي الاثنين والأربعاء، وتذهب إلى قريتها كل يوم خميس، لتعود نهار السبت صباحًا. لم

يكن في سلوكها أمر مميز غير إصرارها على دخول التجمعات بالقرب من آلات تصوير المحاضرات في المكتبات وفي بهو الكلية. بدت لي أنها تحب أن تضيع بين الآخرين، وكأنه شكل آخر من ميلها إلى العزلة.

كنت سعيدًا بأن أكون ملاكها الحارس. وسرعان ما شعرتُ بحاجة قوية إلى أن أكون أكثر وضوحًا. ما إن اكتشفتُ هدوء عالم نسرين وتأكد لي عدم وجود شاب في حياتها، كما لم ألحظ جديدًا أضيفه إلى ما سبق أن رأيت، حتى بدأت تلح عليَّ فكرة إخبارها بأنني أراقبها منذ خمسة أسابيع. لم أكن أستطيع الاستمرار بدور العاشق المتلصص. هكذا في صباح يوم حمل معه خبر وفاة الرئيس حدث ما كان متوقعًا، وسار أحدنا باتجاه الآخر أخيرًا، وذلك بعد خروجها من المنزل، حيث التقت نظراتنا، ونظرت إلى عينَي بصورة مباشرة حتى إنني شعرت بأنها نظرت داخل عينَي، فاقتربتُ منها، ولم تطاوعني الكلمات كي أحييها في البداية. فقط أومأتُ إليها برأسي، وكنت شرعت في السير إلى جوارها حين سألتها:

ـ هل يزعجك أن أسير برفقتكِ؟

من غير أن يبدو عليها الضيق، ومن غير أن تسرف في تعبيرها، قالت:

ـ أنت لا تزعجني، لكن صيف حزيران شديد هذا العام.

هكذا وعلى الرغم من طبيعتي الخجول سِرت إلى جانبها. وكنت ألتفت إليها لأرى رد فعلها. كانت تشد على دفترها بين يديها، وتستمر في السير من دون أن تبدي انزعاجًا، وفي أثناء الطريق إلى الجامعة في ذلك اليوم العادي لم تحرجني بالسؤال عن سبب مراقبتي لها لأسابيع. تحدثنا عن الطقس، ولم يكن لدينا ما نتحدث عنه، كنا غريبَين، وعرفتُ منذ السير إلى جوارها للمرة الأولى أن عندها رهافة شديدة وحساسية عالية. كنت أسير إلى جانبها، أتأملها، وكانت شرايين عنقها الزرقاء تغيب أو تتضح تحت وشاح رهيف هو بشرتها. كما بدا أن لجسدها لغة خاصة، فعندما تضطرب أو تخجل تنفر شرايين زرقاء في رقبتها وفي عروق معصمها.

ما لم يغِب عن ذاكرتي طوال حياتي معها أنه خلال مشوارنا البعيد ذاك، وبينما كنا نسير إلى جوار بعضنا، خف وقْع الهواء بيننا. حدستُ أن اقتراب المسافة هو ما منع التيارات من العبور. وما إن تركتها تمضي إلى كلية الآداب، وقبل أن أتابع سيري إلى كلية الهندسة المدنية، حتى شعرتُ بحاجة إلى

الجلوس على مقعد خشبي لألتقط أنفاسي، وجلستُ، وعاد الهواء إلى حركته ما إن تجاوزتني. شعرتُ بأن تسارُع ضربات قلبي وأنا أسير برفقتها كان تعبيرًا عن الشعور الأول بالحب.

مضت سنوات طويلة قبل أن نتساءل عن تلك اللحظة التي قرر أحدنا أن يعلن فيها عن وجوده للآخر. لا أنسى أن تأخير إعلان وفاة الرئيس لساعات منحني الوقت كي أسير إلى جوار نسرين. واستمر تواصلنا إلى أن أخذتُ مكانًا في عالمها الهادئ. كما تكرر سيرنا معًا مرة بعد مرة، خاصةً في الخريف الذي تلا ذلك الصيف، وصرتُ أرافقها في ذهابها إلى الجامعة وفي طريق عودتها. أحببتُ أن أكون قريبًا منها. أحببت رفقتها ورقتها ومهارتها في أن تكون جميلة دومًا.

جرى كل شيء بيننا بطريقة هادئة، وأتاح عيشنا وحيدَين أن نلتقي. أهلي كانوا يعيشون في السعودية، ووالدها سليم كان يعيش في قرية ماخوس. وقد تعرفتُ إليه بعد انقضاء شهور الجزع التي تلت وفاة الرئيس، وتمت خطبتي لنسرين، ثم تزوجنا بعد عامين من لقائنا الأول، وجئنا إلى الإمارات من أجل العمل والعيش.

* * *

أشعر بأنه لم يبقَ من حياتي في سورية غير صور قديمة اختلطت عليَّ ملامح أصحابها وراء سحابة زمن بعيد. على الرغم من كل ما حدث، ظلت نسرين دائمًا الذكرى الأجمل عن ذلك البلد، الذي أحمل هويته ولم أعِش فيه غير سنوات دراستي الجامعية. لا أستطيع القول إنني سوري الهوية بالمعنى الذي تحمله تلك الكلمة من الشعور بالانتماء، فأنا لم أفهم وفاة الرئيس بالطريقة التي فهمها الناس هناك. نسرين لم تستوعب موته بسهولة، وظل والدها بعد شهور من الوفاة غير مصدق أن الرجل مات. وكان هناك اعتقاد قوي بأنه سيستمر في العيش معهم. لكن هذه المعتقدات الخاصة لم تعنِ لي شيئًا، واقترنت سورية لديَّ بأناس أحبهم، وبسنوات جميلة أمضيتها فيها. كما أزعم بيني وبين نفسي أنني أحضرتُ ما يذكرني بها دائمًا. أحضرتُ المرأة المتفردة، نسرين، التي يمنحها حزنها وخجلها وجمالها كبرياء من النوع المحبب، وضحكاتها البريئة المتعجلة تقلب مشاعري رأسًا على عقب.

* * *

عندما أجرى والدها عملية القلب المفتوح صارت تزور سورية كثيرًا، كانت تأخذ ليال وكميت معها، وأحيانًا كانت تذهب وحدها. غيَّرها مرض والدها على الرغم من أنني لم أسمعها تناديه «بابا» يومًا، لكن مرضه أضاء نقطة كانت معتمة في داخلها. وزياراتها المتكررة غيَّرتها، ولربما بدأ تغيُّرها قبل حادثة المرض بسنوات، ولم يُتَح لي أن ألاحظه بسبب العمل بساعاته الطويلة الشاقة التي استهلكت سنوات من عمري. لقد عشنا ظروفَ غربةٍ تقليدية، تعبنا في سنواتنا الأولى ثم غيَّرتنا السنوات. وعندما يرتاح المرء في حياته المادية وينجح في تكوين شبكة أمانه الاجتماعي، تبدأ المشكلات التي كانت مؤجلة بسبب شروط العمل والحاجة إلى تحسين ظروف الحياة بالظهور على نحو مُلح. وهكذا، وما إن بنينا حياتنا حتى شرعنا في هدمها.

* * *

في داخل كلٍّ منا حكاية تصيبه في مقتل. ومن بين الحكايات التي عشتها كانت حكايتي مع نسرين هي التي أصابتني في مقتل. فالحكاية أطبقت على مصيري، حتى إنني لا أعرف كيف أصرِّف حزن غياب المرأة التي أحببتها، وكلماتي عاجزة لأنها لا تصل إليها. ولا أعرف لماذا أدفع عربة حياتي يومًا آخر، لأن يومًا آخر سوف يرمي ملامح حياتنا وراء العجلات ويعيدها إلى الماضي.

أحيانًا أتأمل ما لديَّ وأتساءل: ماذا أملك؟ وإلى أين أدفع ذاتي؟ ليست لديَّ الجسارة التي كانت لدى نسرين كي أحطم أو أقلب حياتي.

عرفتُ باكرًا أن سليم لن يخرج من سورية، وأنني لن أعود إليها. وبعد سنوات من سفري صار لديَّ انطباع بأننا لن نموت في بلد واحد. عندما أخبرتني عمتي رويدة عن مرض سليم صار الانطباع المعتاد عن الموت يترك ألمًا في داخلي، ولم أعُد أدخر فرصة أستطيع فيها اللقاء بسليم. صحيح أننا لم نعِش في بلد واحد، لكن الحياة لا تطرح التساؤلات ذاتها التي يطرحها احتمال الموت. لربما هذا ما جعل مرضه يدفعني إلى أن أعبِّر عن التغيير الذي كان ناضجًا في داخلي.

كان لي أنا وكارم في الإمارات أربعة عشر عامًا، متزوجان ولنا طفلان؛ ليال وكان عمرها ثلاثة عشر عامًا عندما زرت سورية من أجل الوقوف إلى جانب سليم، وكميت وكان عمره ثمانية أعوام. آنذاك في تلك الرحلة جلستُ ساعات في غرفة ضيقة في مستشفى «السويد» في اللاذقية، في انتظار خروج سليم من عملية القلب المفتوح. وانتظرتُ كلمات الدكتور إياس كي يطمئنني على نجاح العملية، وقد كان متخوفًا من عدم نجاحها بسبب مضاعفات السكري. أمضيتُ ساعات إجراء العملية وأنا أنظر إلى عقارب الساعة من غير أن أقرأها. كنت أنتظر معرفة مصير سليم، وأستعيد شريط ذكرياتي منذ نشأتي من غير أُم حتى انتقالي إلى المنزل الذي اشتراه لي سليم في اللاذقية، حيث تعرفتُ على كارم الذي كان يسكن على مقربة مني في الجهة المقابلة من ساحة اليمن.

بقي كارم يراقبني لمدة، قبل أن أنبِّهه إلى معرفتي بذلك عندما نظرت إلى عينيه بصورة مباشرة، حتى إنه كان يقول إنني نظرتُ داخل عينيه، لا إليهما. وأذكر سيرنا للمرة الأولى معًا إلى الجامعة في ذلك اليوم غير العادي الذي حمل معه وفاة الرئيس. سألني كارم برقة مفرطة:

ـ هل يزعجكِ أن أسير برفقتكِ؟

كنتُ أشعر بالضيق بسبب الحر الشديد منذ الصباح، وكثيرًا ما أحببت الذهاب سيرًا إلى الجامعة، لكن صيف اللاذقية لا يُطاق، أخبرته:

ـ أنت لا تزعجني، لكن صيف حزيران شديد هذا العام.

وفي الطريق إلى الجامعة ساعدنا الحديث عن الطقس على إيجاد ما نتحدث عنه، كنا غريبَين، ثم بمرور الوقت صنعنا أحاديث مشتركة طويلة.

أذكر لقاءاتنا المسروقة في غرفته في المشروع الأول، وفي منزلي. سنتان مرتا كالحلم قبل أن نسافر إلى الإمارات، ونغرق في ساعات العمل الطويلة لتأمين حياة مريحة للعائلة التي صنعناها. لكن وأنا أنظر إلى عقارب الساعة من غير أن أقرأها، شعرتُ بأن حياتي مستنزَفة، وبأنني تغربت عن ذاتي من جراء نمط العيش في الإمارات التي صرت أعدُّها بلدي الثاني منذ إنجاب كميت هناك. وبدت الأشهر الثلاثة التي أمضيتها في اللاذقية مع سليم، في أثناء تعافيه عقب العملية، استعادة من زمان قديم؛ ما نبَّهني إلى أنني كنت أعيش في الإمارات حياة لم أكن لأتصور أن أقبل عيشها.

كنت أجلس في انتظار معرفة مصير سليم، وأفكر به وقد أنقذني دائمًا. هجرته زوجته وداد ما إن أنجبتني وصار عالمي كله. لم يرمِني إلى العمات، ولم يتزوج مرة ثانية. وهبني حياته، وعلمني عظمة مشاعر الحب، وهذا أثمن ما يمكن أن يقدمه أحد للآخر. لذلك كبرتُ طفلة سعيدة، وأصبحتُ أمًّا مُحبة.

بفضل سليم تعلمتُ قيمة الحب، ونمَت برفقته أحاسيسي الأولى إزاء العالم في قرية ماخوس، في جانب يطل على وادي الرميم حيث يعبر نهر داكن يسمونه «النهر الأسود». غير أن حياتي هناك كانت مشرقة بيضاء، ولربما أراها هكذا لأنها تنتمي إلى ذاكرتي البعيدة. نشأتُ في ظل رجل وديع وضخم الجثة. كان كارم يدعوه «الدُّب» تحببًا إذا ما عطَّلت زيارة سليم لي أحد لقاءاتنا، وكان ذلك يضحكني، إذ كان يشعرني بأنني بطلة في فيلم كرتون. غير أنني عشتُ حياة واقعية، ومنذ غادرتُ وادي الرميم للدراسة الجامعية وبعد ذلك من أجل الزواج، صار أرضًا منسية وغائبة في خيالي. أحيانًا كي نستمر نحتاج إلى أن ننسى، وهذا ما واظبتُ عليه.

واظبتُ لسنوات على النسيان حتى جاءتني الذكريات كي تهدد نمط حياتي بينما أنتظر معرفة مصير سليم. عندما أخرجوه من غرفة العمليات لمستُ مقدار عجز الإنسان، وكان قريبي عامر إلى جواري بينما كنت أجري وراء سليم في بهو المستشفى. وشعرت مع وجوده بجانبي بقيمة المشاركة التي يحتاج إليها البشر كي يستطيعوا مواجهة اللحظات الصعبة، وكي يستمروا عطوفين وإنسانيين.

صحيح أنني عشت بين العَمات، غير أن سليم هو مَن كان يهتم بتفاصيل حياتي. يضعني في سريري، يصحيني، يمشط لي شعري، ويختار أثوابي، ولأنه رجل اكتسبتُ ذوقًا صبيانيًّا. احتضاني من قِبَل رجل جعلني سخرية الفتيات. لم

أكن أعرف كيف أربط شعري، فكيف بأن أجدله كما تفعل معظم الفتيات! وبسبب سخرية الفتيات في المدرسة أصررت على سليم أن يقصَّه، وقد قصه لي الحلاق من قرية مشقيتا، بعد أن طلب منه سليم أن يأتي إلى بيتنا فلا يراني أحد ذاهبةً إلى محل الحلاقة. جُنَّت عماتي من سلوك أخيهن، وتلك التسريحة، التي عرفتُ بعد عقد من حلاقتها أن اسمها التسريحة الفرنسية، رافقتني حتى صارت صفة تخصني. وكم فرحت بتلك القَصة عندما قال لي كارم في بداية تعارفنا: «عُنقك الجميل وملامحك الناعمة جعلا الشعر القصير يبرز أنوثتك».

لم يكن لي إخوة كي يدربوني على قول كلمة «بابا». الجميع حولي كانوا ينادون أبي «سليم»، فصرتُ في طفولتي أناديه «سليم». كان رفيقي ولم يكن أحد يدعوه «أبو نسرين». كان رجلًا وحيدًا يربي ابنة هجرته أمها. حتى الغرباء كانوا يروننا بتلك الصورة. كنت أناديه «سليم»، وكانت جدتي حنيفة ترى ذلك ميوعةً مني.

كان سليم يمضي وقته يقرأ موسوعات ويلخصها في دفاتر من مئة صفحة يشتريها من مكتبة الشاطئ، وقد جمع كثيرًا منها خلال حياته. عمل أستاذًا لمادة التاريخ، وكان محبوبًا من تلامذته وزملائه في مدرسة القرية وفي مديرية التربية. أينما حل كان نجمه محبوبًا.

اعتاد أن يذهب إلى اللاذقية كل أول شهر كي يقبض راتبه، فيحضر لي معه أثوابًا وألعابًا. وعندما غادرت عمتي فدوى منزل العائلة صار يذهب إلى اللاذقية مرتين في الشهر. وعندما صرتُ في الصف الخامس صار يذهب مرة ثالثة من أجلي فقط. وكنا نلتقي مع عمتي بين حين وآخر، وكنت أفرح كثيرًا لأنها كانت دائمًا تحمل لي قطعة حلوى أو هدية.

كانا يلتقيان في مقهى «العصافيري»، يجلسان متقابلين، ويخبر كل منهما الآخر عن أحواله وكأنني غير موجودة. تخبره عن زوجها الطيب المحب حسن المعشر. تحدثه عن الحب الذي وجدته لديه وكانت تفتقده في منزل العائلة. كما كانت تتحدث عن وداد بمودة، وهو التفصيل الذي جعلها مختلفة عن الآخرين بالنسبة إلى أخيها. ثم عرفتُ بعد أن كبرت أنهما من طينة واحدة، لا تهَبان العاطفة بسهولة، ومتى وهَبتاها فإنها تتحكم بحياتَيهما. كانتا ترتاحان بارتكاب المعصية، وتريان في الخطيئة نجاة.

كنا نخرج ثلاثتنا من مقهى «العصافيري»، ونسير صعودًا بين حارات اللاذقية

حتى نصل إلى شارع هنانو. نجلس عند «مجنون ليلى» نأكل الحلويات، ومن ثَمَّ نفترق، تعود فدوى إلى زوجها في حي السجن، وأنا وسليم نعود إلى ماخوس. وكنتُ أعرف، من غير أن يحتاج إلى أن ينبِّه عليَّ، ضرورة الاحتفاظ بالسر الذي جمعنا، وهو رؤية فدوى. وعرفتُ لاحقًا أسرارًا أخرى عن حياته، كما لم أُفصح يومًا عن أسراره. في أيام أخرى كنا ثلاثتنا نأكل الكباب في مطعم شعبي في شارع القوتلي، ثم نذهب إلى حديقة «البطرني» سيرًا، وبعد ذلك نفترق، فدوى تعود إلى زوجها، وأنا وسليم نعود إلى القرية.

كنت أشعر بلذة وخفة وأنا أمر قرب البنايات في اللاذقية. عندما رأيتُ بناية الأوقاف للمرة الأولى فُتنتُ بها. لكن بعد سنوات طويلة عندما وصلتُ إلى الإمارات ضحكتُ من ذكرياتي عن أبنية المدينة البسيطة، ضحك امرأة استمرت إلى أن أنهت الدراسة الجامعية وتزوجت وهي تظن أن بناية الأوقاف أكبر بناية قد تراها. وهكذا استقبلتُ غربتي بضحكات تعود إلى طفولتي مع سليم. وشعرتُ بأنني أحببت الإمارات لأنها استقبلتني بضحكات ذكرتني بزمن طفولتي.

* * *

أحببت كارم لأنني شعرت بشبهه بسليم. كان همه أن يحرص عليَّ، وكان يراقبني كما لو أنه ملاك حارس في أثناء سيرنا إلى الجامعة وفي الجامعة، لم يكن يرفع عينيه عني من غير أن يكون وقحًا. كان حدسه بالكامل مُنصبًّا عليَّ، حتى لو لم يكن ينظر إليَّ بصورة مباشرة كنت أعرف أنه يحدسُ بي. يوم تقدم لخطبتي من سليم ابتعدا عني مسافة في حقل الخوخ، ولم أسأل أيًّا منهما عن الحديث الذي دار بينهما. وفي ذاكرتي مشهد كارم عائدًا مع سليم من حقل الخوخ، حينها دخل سليم المطبخ وأخرج زجاجة نبيذ تعود إلى سنة ميلادي، ثم شربناها ثلاثتنا، وبانتهائها أصبحتُ خطيبة كارم، وقد حال شعوري بالطمأنينة دون توجيه الأسئلة. عشت حياتي مع رجلين لم أكن مضطرة معهما إلى السؤال كي أشعر بالطمأنينة. أعرف بذلك أنني عشت حياة حلوة.

في الإمارات كان كارم يُعرفني إلى أصدقائه بأنني بنت اللاذقية، وكان يقولها هكذا «بِتْ» بحذف النون من الكلمة، ما يعطي الكلمة انطباعًا محليًّا. لم أكن أشعر بأنه يسخر مني، على العكس كنت أُحب الصيغة التي يقدمني بها إلى الآخرين. أحد أصدقائه تساءل مرة إن كانت مدن مثل المدن التي جئنا

منها تصلح لأن تكون أمهات! وضمرتُ في نفسي أن أخبره عن أمهات قاسيات مثل أمي وداد. في ذلك الوقت لم أكن لأفهم كيف يكره أحدهم مدينته الأم. وعندما عرفتُ أن الصديق ممنوع من العودة إلى سورية بدا لي احتجاجه مفهومًا. كنت أتفهم تعليقات وسلوك الأصدقاء، وأبقى مستمعة جيدة. أتيح لهم أن يعبِّروا وأبقى صامتة. كنت امرأة متصالحة مع نفسها تكتشف العالم الجديد، وتتعلم أنماط عيش الآخرين بمحاكاة صامتة. كنت مدركة أنني وافدة جديدة، والآخرين متفوقون عليَّ بسبب قِدمهم. وبهذا طردتُ من قلبي المشاعر السلبية التي قد تأتي من المقارنة.

في سنوات إقامتي الأولى كان سليم حاضرًا في حياتي. كنت أتذكره في كثير من التفاصيل. وبين الحين والآخر كنت أتذكر حكاياته التي كان يقصها عليَّ في طفولتي، ثم صار يقصها على ابنتي وابني عندما يلتقي بهما. وأَحبُّ تلك الحكايات إليَّ كانت حكاية الفتاة التي نشأت غريبة عمَّا يحيط بها وسط غابة تطل على بحيرة مهجورة، وخرجت في يوم مشمس لتبحث عن أشخاص يشبهونها. ثم ذهبت مع تاجر ألبان إلى مدن مجهولة، وكل مدينة كانت تقودها إلى أخرى. وقد استمرت في البحث عن أشخاص يشبهونها في مدن وأصقاع مترامية، ثم بمُضي الزمن انتبهت إلى أن الرحلة قد غيَّرتها. ولم تعد تلك الطفلة التي تريد اللعب مع أحد يشبهها.

كنتُ أشعر بالتعاطف مع تلك الطفلة عندما أنتبه إلى أنها فتاة ضائعة لا تعرف ماذا تريد، وكنتُ أشعر بأنها تشبهني، حتى صرت تلك البنت التي فُتنتُ بحكايتها يومًا. وسليم، من أجل أن يسعدني، اخترع نهاية حلوة تشبهه، حين تلتقي الفتاة بطائر يتعاطف معها ويعود بها إلى منزلها القديم قرب البحيرة، وكان يختم الحكاية هكذا: «... ومع نسرين جاءت الطيور واستوطنت ماخوس، وصارت تطير فوق البحيرة، أما عندما ينزل الليل فكانت تأوي إلى أعشاشها». وبانتهاء كلماته كان النوم يهبط عليَّ في طفولتي البعيدة، مطمئنة وآمنة.

لم أكن لأتصور أن ذلك الطائر الذي غيَّر حياتي وأعادني إلى منزلي القديم هو موت سليم، الأب الوحيد الذي عرفته!

الفصل الثاني

حكاية سليم

١

كان يبدو لمن يرى إشراق ساحة منزل العائلة، التي تباعدت الغرف على جوانبها واهتمت حنيفة بنظافتها أيما اهتمام، أن الشمس تشرق فوق ماخوس كي تنير ذلك المنزل أكثر من أي بقعة فيها، وأن الضباب يرتفع مع شروق الشمس عن التقاء النهرين الكبير الشمالي والأسود، قبل بناء السد، فقط كي ينكشف الأفق أمام ساكني المنزل.

كانت الديَكة تطلق صياحها في الرابعة فجرًا، ومع صياحها تنهض حنيفة وتبدأ في توزيع أعمال التنظيف على نساء العائلة. يمضي الأبناء والزوجات لجمع أوراق التبغ الخضراء مع الفجر، ويعودون مع وصول الشمس أعلى شجرة العذر في حقل القمح. وكانت شؤون البيت تسير بتنظيم صارم: النسوة يخبزن في ساعة محددة، الأبناء يتناولون طعامهم في ساعات محددة. وقد ضبطت حنيفة الساعة البيولوجية في عقول الجميع بتعليمات مقترنة بصيحات وتوبيخ. وكانت حنيفة من القوة بحيث استطاعت فرض نظامها.

بعد وفاة زوجها دهسًا بصخرة هوت عليه عندما كانوا يستصلحون الأراضي، ربَّت حنيفة أولادها بمفردها. ربَّتهم كما لو أنها تعدهم إعدادًا صارمًا كي يواجهوا قسوة الطبيعة. غير أنها كانت تبعد سليم عن إخوته، فقد كان برفقة والده عندما وقعت الحادثة. واعتبرت الأم أن المشهد القاسي الذي رآه لرأس والده يُدهَس تحت الصخرة كان كافيًا لتعليم الفتى قسوة الطبيعة. كانت النجاة من الموت نصيبَ سليم من القسوة.

لا يعرف الشهود الذين يرون الفواجع أنهم برؤيتهم حَتف غيرهم، فإن الموت يسكنهم ويجعلهم يتألمون بصورة غامضة.

رأى سليم رأس والده يتهشم تحت الصخرة. انعقد لسانه وهو يرى الصخرة

تتدحرج باتجاه والده، ولأنه رأى المشهد وهو الأكبر بين إخوته، فقد ورِث دور الأب. وحتى بعد أن كبر الإخوة لم يترك المنزل ويمضي إلى حياته بعيدًا عن إخوته، مع أن منهم مَن كان يتحامل عليه. وإنما بقي الشعور بالمسؤولية يلازمه، والعاطفة التي أحاطته حنيفة بها زادت من هذا الشعور.

صارت حنيفة بعد الحادثة امرأة لا تعرف الشفقة ولا تأبه لاعتراضات أولادها. كانت تقصي سليم عن إخوته، وقد استمر لسنوات في رؤية كوابيس عن مصرع أبيه. وبرع في تعلُّمه بينما أخفق أخواه. وعندما صارا شابين ويعملان كان سليم يحظى بالاحترام كونه المتعلم. بينما كان سليم ينفق ما يمكن ادخاره في السينما والمكتبات، كان أترابه وأخواه يدخرون أموالهم من أجل شؤون الزواج. هكذا بدأ كلٌّ من الإخوة الثلاثة يبني عالمه، وكان كفاح ويعرب ينظران إلى أخيهما نظرات حاسدة، لكنهما وهما يريانه يقسم وقته بين العمل والقراءة، وفي أوقات الراحة يتأمل شجرة العذر الكبيرة؛ أخذا يشفقان عليه. وكان همهما مراقبة فتيات القرى اللواتي يحتشدن عند نبع ماخوس، بينما أمضى سليم سنِي مراهقته معتكفًا يتأمل الناس البعيدين؛ ما جعله خجولًا، وما دفع حنيفة إلى القلق عليه. كانت تعتقد أن الجميع يسعى لأن يستغله، وباحتضانها له جعلت منه كائنًا حساسًا ربما لا يحتمل صعوبة العيش.

كان قد مضى على تقاعد سليم اثنا عشر عامًا عندما جلستُ برفقته في القرية بعد خروجه من عملية القلب المفتوح، وقد تغير شكل السفح عمَّا كان عليه في سنِي شبابه. لم يكن الرجل المتقاعد يتوقف عن النظر إلى السفح، وقد تغير جمال المشهد الذي كان في ذاكرته قبل بناء السد، وتشكَّل البحيرات السبع وغمرها لقرى أرض الديس وأرض الدلبة وبيت إسكندر والدمرجية وغيرها. كان ينظر إلى مسافات مجهولة ويتذكر السهرات في القرية. وفي شبابه كان أهل القرية يسهرون كل يوم في أحد البيوت على ضوء مصباح الكاز، وعلى أنغام راديو يعمل على أربع بطاريات. يتحدثون في شؤون الزراعة وصيد الخنازير والغزلان. بينما النساء كنَّ يتنقلن بين النميمة وبين أخبار الأبناء وأهل القرية البعيدين في مدن بعيدة، وتذكُّر الحوادث التي مرت في القرية، خاصةً الحوادث التي كان أبطالها نساءً. بينما الشبان والفتيات كانوا يسترقون لقاءات، وأحيانًا قبلات، متعجلة في زوايا معتمة.

كان سليم المتعلم والخجول يمضي السهرات مراقبًا ما يحيط به. يسمع ما يدور ولا يعلق مع أنه واسع المعرفة. وكان يشعر بنوع من الغربة عن محيطه

مع حرصه على طيب العلاقة مع الساهرين. لم يكن يجلس في صدر المكان، وإنما يختار مكانًا يستطيع منه أن يراقب كل شيء من غير أن يلفت النظر، وخاصةً نظر حنيفة التي كانت تعدُّه زينة شباب القرية. وكان يعرف أنه لن يقوى على ترك أخوَيه ليصنع مصيره بعيدًا عن أهوائهما المضطربة، وكان حريصًا على الاهتمام بأختَيه رويدة وفدوى اللتين يراهما أقرب إليه من أخويه كفاح ويعرب. فدوى هي البنت الوحيدة التي لم تعرف والدها؛ الأمر الذي دفع سليم إلى أن يولي أخته الصغرى عاطفةً واهتمامًا بالغَين.

عندما عاد سليم جريًا إلى الدار يقطع النبأ المشؤوم لهاثه، ما إن رأت حنيفة المصيبة في ملامحه، حتى وضعت فدوى عن صدرها على مساند القش. كانت المصيبة التي رأتها في وجه ابنها كبيرة بحيث نشفت حليبها، واستمرت تذكر كيف أنها أرضعت أولادها لمدة حَولَين باستثناء فدوى، التي عزت جموحها عن العائلة بأنها لم ترضع من صدرها كما رضع إخوتها. وعندما أصبحت فدوى بعمر الزواج قررت أن تخرج على إرادة العائلة، كما كان لسليم الفضل في بقائها على قيد الحياة. عندما رمى كفاح ويعرب أختهما فدوى في ساحة المنزل وأخذا يضربانها، خرج سليم من الغرفة والصدمة تملأ وجهه من جراء توحش الأخوين، ثم سرعان ما تدخَّل في وجه الأخوين الهائجين. أمسك فدوى وسحبها بعنف كي يخلصها من أيديهما، أدخلها غرفته ثم أغلق الباب على الصرخات الغاضبة في الخارج.

وفي الداخل حكت فدوى لسليم بعدما تعهد لها بالحماية، وهي تمسح بكُمها شفتيها الداميتين، عن حبها لعدنان، ولم تنفِ نية الفرار معه. وفي الخارج كان يعرب يصرخ بأن سليم ليس رجلًا، وبأنه يغفر لوداد فرارها لتبحث عن رجال يشبعون رغبتها.

في الداخل كانت توجد طفلة تجلس على حافة السرير تراقب ما يحدث وتسمع ما يقال. وكان عمرها خمس سنوات عندما سمعت للمرة الأولى التلميح عن امرأة هربت من زوجها واسمها وداد. وبالطبع لم تكن لتعرف معنى أن امرأة هربت لتبحث عن رجال يشبعون رغبتها. ولم تكن الطفلة تدرك أن المرأة المقصودة هي والدتها، ولربما في ذلك العمر كانت تستطيع التخمين بأن الزوجين هما مَن يعيشان في منزل واحد. لكنها بقيت تمقت ذلك التركيب اللغوي «إشباع الرغبة»، ذلك لأن الكلمات المبهمة خرجت مقززة من يعرب، وفيها قدر كبير من الاحتقار لأبيها. ولربما بدأت الطفلة تمقت

جسدها منذ سماعها تلك الإهانة الموجهة لسليم، مَن يعرف؟ مَن يستطيع القول إن ذلك الاحتقار لم يستمر في النمو داخل جسد الطفلة؟!

المؤكد أن الطفلة التي رأت ثياب عمتها الحنون المرحة ممزقة، وقد بان لحم جسدها تظهر عليه كدمات وخيوط دماء نافرة، وفي عينيها ذعر أخرس، بقيت تمقت عمها يعرب الذي شعرت بأنه يتكلم عن سليم بكلمات قاسية عنيفة متعالية وبصوت عالٍ. لكن سليم هدَّأ أخته، واحتضن طفلته مؤكدًا لها أن هذا الصراخ لا يعني شيئًا، ويجب ألا تخاف، وأنهم سيهدأون بعد قليل. بقيت فدوى لأيام في غرفة سليم، وخلال تلك الأيام كان يستمع إلى شكواها ضد يعرب ووالدتها اللذين لا يريدان لها السعادة، بل يريدان منعها من الزواج بمن تحب لأنه من طائفة مختلفة.

كان سليم وهو يناقش أخته يشعر بنوع من التشابه بينها وبين وداد. وكان لكلام فدوى ودوافعها تأثير قوي في نفس سليم، الذي اقتنع بأن ما تطلبه أخته حق لها، ومنعها سيؤدي إلى إحدى كارثتين؛ إما أن تموت على يد أخيه الصغير المتهور يعرب وتحصل مصيبة في البيت، وإما أن تتزوج مرغمةً ثم تهرب من منزل زوجها وتكون المصيبة ألعن. لذلك قرر أن يساعدها على الهروب من أجل الزواج والعيش مع مَن تحب. كما كان في داخل سليم شعور بأن فشل زواجه بامرأة من غير طائفته قد تسبب في مزيد من تزمُّت العائلة تجاه زواج فدوى.

وهكذا تدبر أمر خروجها من المنزل في أثناء نوم حنيفة، التي أدرك بعد سنوات أنها لم تكن نائمة وإنما في نقطة عميقة من وعيها أرادت لابنتها أن تنجو. استغل سليم حالة استنفار عام في الجيش ليسهل هروب فدوى، وقد طُلب يعرب للالتحاق بالخدمة بشكل فوري في ليلة من ليالي سورية السوداء، بعد أن وصلت أنباء إلى القرى عن انقلاب الأخ على أخيه، انقلاب القائد على الرئيس. وقد ارتبط صراع الأخوين في ذهن فدوى بخروجها من منزل العائلة، بمساندة أخيها سليم، هاربةً بين أحراش غابة السنديان مثلما فعلت وداد.

منذ أن هربت فدوى صار سليم غريم أخويه، فقد اعتبرا أنه مَن جلب لهما فضيحتين؛ وداد وفدوى. وقد تحدث ناس كثيرون عن نساء العائلة وتساءلوا حيال ما يدفع بهن إلى الهروب من منزل حنيفة.

كثيرًا ما عاملتني جدتي حنيفة برقَّة لا أنساها؛ ما يجعل استرجاع الجزء

الخاص بها أمرًا شاقًّا. وكنت قد أحببت الجدة الصارمة من كل قلبي على الرغم من نظراتها الغامضة نحوي في أوقات الصفاء. وقد رأيت صرامتها بهدف ضبط أفراد العائلة وتلافي التمردات التي يمكن أن تفرط عقد عائلتها. كنت أشعر دائمًا بأنها تحمل لي كثيرًا من الشفقة، وأنها كانت تحب سليم من كل قلبها وترى فيه أقرب أولادها إليها، مع أنني في جزء منها كنت أشعر بسخطها عليه.

أنا نسرين... الطفلة التي كانت تجلس على حافة السرير تراقب والدها، وتسمع كلمات الاحتقار الموجهة إليه.

* * *

كان سليم يذكر والدته كمَن يبحث عن أطلال أنوثة تحلت بها. يذكر كيف دأبت على أن تعقص شعرها بدبابيس مثلمة وترده عن جبهتها. يذكر الكندرة السوداء التي اشترتها من بائع جوال، ووضعتها في صندوق ذخيرة عتيق. وكانت ارتدتها في مناسبات متباعدة قبل أن تهترئ داخل الصندوق، وعندما ذهبا إلى طبيب الأسنان بعد محاولاته الكثيرة لإقناعها بالتوقف عن الاستطباب باستخدام كبش القرنفل والمكابرة على الألم، كأن التعبير عن الألم كان يسبب لها شعورًا بالإهانة.

انتبه سليم وهما في غرفة الانتظار إلى أن والدته كانت تحاول أن تخبئ كندرتها التي بهت لونها بوضع قدميها واحدة فوق الأخرى وسحبهما تحت الكرسي بقدر ما استطاعت. وعندما خرجا من العيادة راحت تلومه بشيء من الغضب لإصراره على أن يأتيا إلى الطبيب في شارع المغرب العربي. وبينما كانت تلومه، لمس في أعماقها بعض خجلها واستيائها من جراء إهمالها لشؤونها. فكر سليم في أن يذهب مع حنيفة إلى الأسواق القريبة، ثم عدلَ عن تلك الفكرة وذهبا إلى محل تصوير بالقرب من بناء الريجة القديم بموازاة شارع أنطاكيا. وهناك طلبت منه أن ينتظرها في الخارج. نزلت الدَّرج، غابت لدقائق، ثم عادت وأعطته وصل الاستلام. وفي اليوم التالي أحضر الصورة ومعها كندرة جديدة.

يذكر سليم سعادتها وخجلها، ويتأسف لوفاتها قبل أن تنتعل الكندرة الجديدة. أما الصورة التي أحضرها من استوديو التصوير فقد علقها بعد أسابيع في خيمة العزاء عندما جاء المُعزون يواسونهم بالفقيدة.

* * *

يوم رأت حنيفة صورة وداد مع فدوى بقيت تذهب وتجيء، وتتأكد من فدوى إن كانت هذه هي «الآنسة» التي سيتزوجها ابنها، وكان سليم دفع أخته كي يختبر قبول والدته بفكرة زواجه من خارج القرية ومن طائفة مختلفة. لكن حنيفة تساءلت تساؤلات جمالية حيال جبهة وداد العريضة ومبسمها الناعم، ورأت في اجتماعهما في وجه واحد غرابة أضفَت على ملامحها انطباعًا بأنها امرأة غير ناضجة. كأن رأسها استمر في النمو من الأعلى بينما استدق عند الذقن. لم تكن حنيفة تُعجَب بالوجه المتطاول، وكانت إذا استحسنت وجهًا تقول إنه مدوَّر مثل الرغيف.

شكلت مواقف عديدة علاقة حنيفة مع وداد. يوم عرف سليم بحمل وداد كانت حنيفة قد كلَّفت الأخوين وزوجتيهما بجمع أكداس العدس من أرض الريحان. ولم يتخلف أيٌّ منهم عن العمل الصباحي، بينما كانت وداد ترمقهم بنظرات مترفعة وهم يعبرون أمامها. جالسة على كرسي خشبي، ترد غرَّتها عن جبهتها العريضة وتزمُّ مبسمها الناعم. لمح سليم امتعاض حنيفة من وداد الجالسة على الكرسي تضع رِجلًا فوق رِجل، وأخبر والدته في ذلك المساء بأن زوجته حامل. ومع أن حنيفة لم تكن على علاقة طيبة مع وداد، فإنها فرحت بالخبر، وعلقت بأن ذلك يحدث مع النساء المتزوجات عادةً، ثم تابعت انشغالها تلملم الخيوط إلى قطعة خشبية.

مع رعاية سليم المبالغ بها لزوجته بدأت حنيفة تلوم ابنها على خشيته الزائدة، وتحكي له عن البطون التي وضعتها في الحقل، إذ كان الطلق يجيئها في ساعات الشروق، باستثناء فدوى التي ولدتها قبيل الغروب. كانت حنيفة ما إن يندفع الجنين بين قدميها حتى تقطع حبل السُّرة بالحجر، وتتمدد على ظهرها ريثما يهدأ صراخ صغيرها لتعود به إلى المنزل. وتؤكد أنه لولا إصرار زوجها على أن ترتاح لبضعة أيام لكانت واصلت العمل.

يوم هروب وداد اقتحمت حنيفة غرف المنزل تبحث عن ابنها، فوجدته متمددًا هادئًا يضع ابنته فوق صدره. صَعُب عليها أن تنهر ابنها الذي بدا مع ابنته خارج العالم، وحدست بأن ابنها سوف يعاني من الدنيا. اقتربت منه ومدت يدها برفق إلى فخذ الرجل المستلقي على الأريكة الخشبية في المطبخ، وقالت له بصوت واهٍ:

ـ سليم، سليم... «الآنسة» هربت من الدار.

فتح سليم عينيه بهدوء، فنظرتْ نحوه بشفقة كما لو أنها تعتذر منه، وأخبرته بشيء من التفصيل أن زوجته غادرت بالفعل. وقد سألهم بائع الألبان عمَّا كانت تفعله كنَّتهم على طريق مشقيتا ـ اللاذقية في الخامسة صباحًا. لم تترك لهم وداد فرصة أن يداروا الفضيحة. وكان النوم والتعب أخذا مأخذهما من سليم الذي اعتقد حديث والدته جزءًا من منام يراه رجل متعب. لذلك عقَّب تعقيبًا في غير مكانه:

ـ سهرت مع الصغيرة كل الليل. دعيني أتم، لا أعرف كيف نامت.

وهكذا من جراء رده البارد غير المتوقع، بدا لحنيفة أن سليم كان يعرف بأمر هروب وداد، وواجهته بعد رحيل فدوى بقولها له إنه تواطأ مع أخته في هروبها كما تواطأ مع زوجته. كما أخبرته بقسوة أنه مَن جلب العار مرتين إلى المنزل، وقد أشيع عن منزلها أنه منزل الهاربات، وتحدثت النسوة من أقرانها في القرية بأن الحياة معها غير ممكنة. الأمر الذي أشعر سليم بالإهانة، ودفعته حساسيته إلى الشعور بأنه أخطأ بالتدخل في شؤون إخوته. هكذا قصر الرجل عالمه على تأمين الحب والحرية لابنته، حتى صار سلوكه معها مثالًا للسخرية في العائلة.

في صباح تلا رحيل زوجته جمع صورهما ووضعها في كيس قماشي مع المصحف الشريف. لكن حنيفة التي لم تكن تعرف قراءة القرآن، وإنما في مساءات متباعدة كانت تفتح صفحاته وتعيد إغلاقها، رأت الصور، ثم أتلفتها. وأخبرت سليم مؤكدة، وهي تحلف باسم النبي أيوب ومقام الشيخ علي بن سلمان والمصحف الشريف بين يديها، أنها لو دخلت النار بسبب فعلتها فإنها لن تندم.

ارتاحت حنيفة بعد أن أتلفت صور وداد، وشعرت بأن أمر وداد انطوى، وأنها عادت سيدة هذا البيت، غير أن مغادرة فدوى للمنزل غيرت صورة حنيفة، المرأة الجبارة المُصرَّة على حضور المناسبات جميعها في القرية. حتى إن أبناءها الذين كانوا يذعنون لما تطلب بسبب الشفقة، تغيرت معاملتهم معها. فالسطوة التي منحتها إياها مغادرة وداد للأسرة سلبتها إياها فدوى. كانت الجدة مدركة للأحاسيس التي يضمرها الآخرون نحوها، لذلك أخذت تقترب من عالم سليم وتشعر بالراحة بوجوده، فهو وحده مَن استمر يهاب والدته بصدق ويحترم كلماتها ويستمع إلى مشورتها. كان الابن الذي أنشأته على

الحب أمانها الأخير. ومع الوقت لم يعد يسبِّب غيرة إخوته.

أصبحنا، جدتي وسليم وأنا، مثار شفقة العائلة. وباتوا ما إن يُذكَر أحدنا حتى يُذكَر البقية. كما لو أن جدتي باتت تأخذ مكان أمي في نظر العائلة، خصوصًا أنها توقفت منذ رحيل فدوى عن كيل الشتائم لوداد.

بعد أن وزعت حنيفة الإرث على أبنائها تركت لنفسها كرم الخوخ الذي قضى فيه زوجها، واستمرت حتى أسبوع وفاتها تشرف على إرسال الخوخ إلى السوق، وتسأل عن أسعاره، وإن كانت الحدود قد فُتحت أمام التصدير. وبقي سليم كلما التفت إلى مدخل البيت القديم المتهدم، يذكر والدته في سِنيها الأخيرة تجري وراء الدجاجات كي تأوي إلى القن. ويذكر تبعثر الدجاجات بعد رحيلها، والخصومات التي انفضَّت بينه وبين إخوته، وكان كلما تحدث عنها يُظهِر حبًّا واحترامًا كما لو أنها لا تزال موجودة أمامه أو تسمعه.

* * *

كان سليم يشعر بشيء من الحزن وهو يحكي عن والدته، وقد عرف نساءً وحيدات بعدما هجرته زوجته، وفي كل امرأة كان يعرفها كان يلتقط شيئًا من زمن طفولته، فالنساء الوحيدات يذكِّرنه بوالدته. وقد أجاد الرجل المسن المستريح على الأريكة إخفاء أسراره العاطفية مثل أي «جنتلمان». كما كان يختار نساءه وحيدات ومُحبات، لا يختارهن، بقدر ما يجد نفسه منجذبًا إلى النساء الحزينات. غير أن وداد عبر غيابها هي مَن صنعت حياته، وكثيرًا ما يصنع غياب مبهم وكبير حيواتنا.

٢

تنداح أزمنة وتتتالى، يجيء أناس ويرحل آخرون، تتغير الأمكنة ويتغير ناسها. وفي ذلك العالم المتغير الذي ما يلبث أن يصير منسيًّا بقي سليم عالقًا في لحظات قديمة. وقد ظل الرجل منفتحًا وعطوفًا، في حديثه المتدفق وضحكاته الصافية يشعر الآخرون بالحب. كما يكاد مَن عرف سليم لا يصدق أنه عاش وحيدًا، فهو خفيف الظل وعذب عذوبة محيرة. إلا أنه كان من أولئك الذين لا يسهل أن تكتشف فيهم الصداقة، لربما لأنه أمضى ردحًا من حياته رفقة الغابات، وكانت والدته تدعوه «أبو المغازل» تيمنًا بالطائر المائي.

كان عندما يشرح أفكاره يحرك يديه في الهواء كما لو أنه ينشر نغمًا؛ ما دفع وداد إلى أن تدعوه «المايسترو». وقد درسا في كلية الآداب في آخر سنوات السبعينيات. ولم يكن مألوفًا أن تتحدث الفتاة علنًا عن شاب يعجبها، إلا أن وداد كانت تراقب مجيء سليم من خلف سور الحديقة لتنادي صديقاتها وتقول: «جاء المايسترو». خصوصًا عندما يسير برفقة أحد، فيمشي ويحرك كف يده وأصابعه الطويلة النحيلة في الهواء. وهكذا شاع بين الأصدقاء أنه المايسترو. وعندما أخبرت وداد صديقاتها بأنها سوف توقع به، شهقن: «بـالمـايسترو!»، كما لو أن حدثًا استثنائيًّا سوف يحدث في جامعة دمشق.

كانت وداد تنظر إليه وتراه غريبًا بين الشبان. يدخل وسط ازدحام الجامعة ويبقى متفردًا. وفي حديثه كان يلعب دورًا وسطيًّا في نقاشات الطلبة وصراعاتهم التي سوف تستهلك سنوات من عمر كثير منهم، في سنوات السبعينيات وما بعدها، عبر الاعتقالات والتغيرات التي طالت المجتمع كله. غير أن سليم كان يبدو مرتاحًا كما لو أنه يسير وسط حقل من الخزامى، على الرغم من أن لقاءاته مع وداد كانت تحدث وسط ترقب دمشق وخوفها من البارود والدم.

خلال فترة قصيرة عرف الجميع أن لسليم قدرة التأثير في الآخرين من غير أن يكون متبجحًا؛ ما جعل وداد تشعر بأنها تريده لنفسها حتى إن اضطرت إلى الزواج به. وكانت تجيد الاحتفاء بأنوثتها. الأمر الذي دفع الفتيات إلى الافتتان بها، وجعل الشبان يفكرون بها على أنهم رجال تحت الطلب. لم تدفع هذه السمات التي حظيت بها وداد إلى سلوك متعالٍ، بل نأت بنفسها عن المنافسة التي كانت تحصل بين أقرانها. استسلمت الفتيات إلى حقيقة أنها

جميلة تنادي بقيمة الحرية على نحو لن ينفع فيه الدخول معها في منافسة. كما استسلم الشبان إلى فكرة أنها تختار مَن يدخل عالمها وتختار وقت خروجه. وكانت ما إن تعبر بين الشبان حتى يسري في عروقهم شيء من المهابة، عرَّفه المايسترو بأنه عبور الجمال. وعندما وصل حديثه إليها أدركت لماذا أرادت أن تكون معه من دون سواه، شعرت بأن سليم يقتحم عليها جمالها من غير أن يسيء إليه.

كانت الصورة التي وضع الآخرون فيها وداد تجعل منها فتاة وحيدة، وبدأت تتوق إلى أن تُعامَل على أنها فتاة عادية. أرادت أن يُنظر إليها من قبَل الأخريات على أنها غريمة. وأصبح رهانها على أن تكون مرغوبة يشغلها عن الحب ذاته. يذكر سليم أن وداد كانت تبدو بالنسبة إلى مَن يلتقي بها آتية من عالم، لشدة ما كان يبرق، يُشَك بأنه عالم مزيف. وقد وجدت في المايسترو خلاصها من وحدة رماها إليها جمالها. كما أنها اختارته وأرادت أن تختبر نفسها في الحب، وأن تُحِب على طريقتها حتى تهب الجميع درسًا في الحب. وبالفعل أعقبت وداد درس الحب البديع الذي استمر لثلاثة فصول دراسية في أرجاء دمشق، بدرس آخر عن النسيان. كما لو أن الحب لا يصبح تامًّا إلا في مقاومته للنسيان وفي محاولة تذكُّر المحبين لحظاته.

عرف سليم بتعاقب السنوات أن وداد كانت مثل بشر كثيرين، لا يشغلهم الحب بقدر ما يشغلهم أن تُقبَل نذور جمالهم. سليم هو مَن كان مختلفًا، واختلافه يجيء من كونه شهد مصرع أبيه، ومن اعتباره أن الحياة أعدَّته ليكون الحاضن لعائلته من بعد والده. وهكذا أمضى الرجل العاطفي حياته في ظلال قصة واحدة، يجزم أنه لم يعِشها سوى لثلاثة فصول دراسية، وكان يمتنع عن احتساب إقامة وداد معه في القرية من قصتهما.

كان لدى سليم شعور قوي بأنه غريب، يستغربه أهل المدن لأصالة طباعه، ويستغربه أهل القرى لرقته ونعومته؛ ما جعله يعتقد بأن لا أحد يأخذ مشاعره على محمل الجد. وداد هي مَن ساعدته على الخروج من هذه الصورة، ويذكر بشيء من الحيرة اندفاعها تجاهه. كما فهم من فدوى عندما تحدثا بشأنها في أحد مساءات ماخوس أن وداد كانت تريده. وعندما تركت حياتها في دمشق ورافقته إلى اللاذقية أدرك أن حياده إزاء الحياة جلب له أثمن ما فيها. وخلال جلسات سليم مع فدوى في مقهى «العصافيري» وحديقة «البطرني» عملت فدوى كل ما أمكنها كي تؤكد له أن مشكلة وداد معه بدأت بعدما جاء بها إلى

القرية. وكانت فدوى تطلب من سليم أن يسامحها، قبل أن ترفق طلبها بواحدة من جملها التي تقود إلى حقيقة أن حنيفة لم تكن تُطاق حتى من قِبَل بنتَيها، فكيف كانت بنات الناس لتطيقها!

عند هذه النقطة كان كلٌّ من سليم وفدوى يصمتان، لأن أيًّا منهما لم يكن يريد أو يقوى على أن يجرح الآخر، خصوصًا أن علاقة الأخوَّة التي جمعت بينهما داخل الأسرة كانت تختلف عن العلاقة التي جمعتهما مع باقي أفراد الأسرة. بقي سليم يعد فدوى أخته المدللة، حتى بعد خروجها من المنزل كان حريصًا على أن يساعدها بالخفاء عن والدته بأن يأخذ لها حصتها مما تنتجه كروم عائلتها. وقد استمرت فدوى تؤكد لأخيها حب وداد له، إذ لا توجد امرأة تنجب من رجل تلهو معه. لكنه لم يكن متأكدًا حيال صحة هذه الكلمات، فهو يدرك كم كان يعز عليها أن تجرحه.

حكت وداد لسليم عن مخاوفها من أن تكون أمًّا، وعن رؤيتها لوالدتها تعاشر رجلًا غير أبيها، وجهلها بما كان يحدث أمام ناظرَيها من ارتباك الغريب ما إن رأى الطفلة تنظر إلى والدتها، وتيه الأم عن عينَي ابنتها اللتين تنظران بحيرة ورعب، مشدوهتين بالعنف الذي تتعرض له الأم الغارقة في سيل اللذة. لذلك بدا حملها مفاجئًا له، وكان في غمرة يأسه يذكر مخاوف زوجته من أن تكون أمًّا، كما لم يكن يتوقف عن لوم نفسه.

«نحن أبناء الماضي...».

كان سليم يقولها بصوت مسموع عبر عتبات منزل العائلة، خلفه الصور والتذكارات وأمامه أدوية السكري. كما لو أنه أراد لعبارته اجتياز الأفق المحدود والوصول إلى حنيفة التي ترقد في المقبرة في غابة السنديان، والوصول إلى وداد التي يجهل أي حياة تعيش! وربما ترك في داخله كثيرًا مما لم يروِه لي.

ذكر سليم العامين اللذين قضتهما وداد معهم في القرية. وكانت ترى كيف يعامَل كأنه طفل تسبقه والدته في جميع خطواته. تدافع عنه في وجه إخوته، وتسعى إلى جعله مرتاحًا مع «الآنسة» التي تسكن معه. وهو اللقب الذي كانت تقصد منه إظهار الود لوداد، إلا أن وداد كانت تشعر وكأن حنيفة تسخر منها به. كما أن سليم لم يتوقف عن الإيحاء لوداد بأنها تسبب له حرجًا بين أقاربه، بينما استمرت هي في الاعتراض على هؤلاء الأقارب وغيرهم، مؤكدةً أنها مثل الزهرة في جرد خالٍ. بهذا كانت تفتنه وفي الوقت نفسه كانت

تُشعره بعجزه على نحو متواصل. وكلما وصل الأمر بينهما إلى حد قد يخرب فيه عالمهما، كان سليم يقترح زيارة إلى اللاذقية، أو إلى أهلها في حمص، أو إلى دمشق حيث بدأت حكايتهما التي كُتبت لها نهاية سريعة.

* * *

أخبرتني فدوى التي كانت تعرف كثيرًا من أسرار وداد، ولم تكن تخبرني إلا القليل مما تعرف، الأمر الذي جعلني أبغضها. وقد كانت قريبة من أمي، حتى إن أمي أخبرت فدوى باقتراح والدتها الإنجاب من سليم إن كانت تجده رجلًا طيبًا. وردَّت وداد مؤكدةً طيبته من دون أن تحتاج إلى التفكير ولو لحظة واحدة. وقد كانت وداد في زيارة لأهلها الذين سكنوا في شارع الحمرا في حمص، وأخبرت والدتها عن شعورها بالغربة في القرية. وفي مساء اليوم الذي عادت فيه إلى القرية أخبرت زوجها عن رغبتها في الإنجاب، وشعر بسعادة تفوق الوصف، ثم استمرا على الإيقاع الرتيب لحياتهما. كان سليم يُعلِّم أبناء إخوته ويشرف على وظائفهم المدرسية. وكان يعرب بعد انضوائه في سرايا الدفاع يجيء في زيارات متفاوتة إلى المنزل وقد تغير شيء فيه، وصار عنيفًا. كما نشأ في داخله ميل إلى أن يكون متعديًا. بينما وداد كانت تجلس معظم الوقت على المصطبة تراقب حركة الشمس عند الغروب، أو تنتظر رؤية منظر إشراق الشمس من وراء الجبل، أو تراقب ارتفاع كتلة الضباب عن النهرين في ساعات الصباح الأولى. وتفكر في مدى قدرتها على احتمال الحياة في جوار يعرب المتعدي، الذي كانت تصفه لفرط رقتها بأنه «بلا ذوق».

لم تكن وداد تفهم إصرار سليم على البقاء في كنف والدته، وكانت تبني مخططات كثيرة ليغادرا معًا. لكنها كلما اقترحت عليه فرصة للخروج من هذا المنزل كان يقابلها بالرفض، أو يقدِّم لها أسبابًا لم تكن تقنعها. فعندما اتصلت بصديقتها التي سافرت مع زوجها إلى الكويت، وسألتها عن إمكانية توفير عمل في التدريس لزوجها سليم هناك، رفض سليم الكلام في هذا الشأن ما إن فاتحته بالموضوع. وعندما طلبت إليه أن يكلِّم صديقهما الذي يعمل في بيروت، أخبرها سليم عن الوضع غير المستقر في لبنان. وبعد عدة محاولات عرفت أنه لن يغادر ماخوس. ووجدت نفسها مع الوقت تتوقف عن السؤال عن أحوال صديقاتها. وقد أدركت السيدة أن حياتها أخذت شكلًا جديدًا بالنسبة

إليها ما إن تزوجت هذا السيد. وهكذا بينما كانت تبني المشاريع في رأسها عن الغد ثم تهدمها، بانت آثار حملها. ومع نمو الحمل صار ينمو في داخلها شعور باليأس. لم تكن سعيدة في حملها، تلك الحقيقة التي تجاهلها سليم. كما تشكَّل لديها انطباع من جراء تعليقات حنيفة بأنها مجرد وعاء لإحضار أطفال جدد للعائلة.

* * *

كان الأبناء والزوجات في طريقهم إلى أرض الريحان لجمع العدس. رمقتهم وداد بنظرات متكبرة، وبدأت تنقل نظرها بينهم وبين زوجها الذي كان يرفع يده ليحيِّيهم كلما عبر أحدهم. إلى أن عبرت حنيفة وأخبرها بصوت سمعه الجميع أنه ينوي الذهاب معهم. إلا أن حنيفة تجاهلته، وألقت تحية على وداد التي بعدما أسندت ظهرها إلى الوراء، رفعت حاجبيها أمارةً على رد السلام. ما جعل سليم يرتبك، ويتجه صوب زوجته ليُشعرها بأنها أحرجته أكثر من طاقته على الصمت. فنظر إليها نظرات حادة، وقال:

ـ أنتِ غير محتملة.

بعد صمت للحظات قالت:

ـ لولا أنني أنتظر طفلًا لما بقيت في منزل حنيفة هذا.

ولربما شعرت بأنه يريد أن يبتعد عنها ويتركها وحيدة في منزل لا يعنيها، بل كانت تخافه أيضًا في أوقات وجود يعرب. ومع إلحاح سليم على والدته كي يخرج ويعمل معهم، بدأت تدرك أنه سئم من رفضها للعيش برفقته وعائلته. وقد أخبرته أنها حبلى على نحو لم يكن ينتظره، ثم دخلت الغرفة، لتترك زوجها في ساحة الدار لا يعرف ماذا يفعل. وعادةً كان سليم يصعد السلم الخشبي إلى السطح ويتأمل شجرة العذر الكبيرة.

صارت وداد تخرج من المنزل، خصوصًا في الأوقات التي يوجد فيها يعرب، وتتمشى في الطريق الذي يمتد أمام المنزل. وشعر سليم بأنها كانت تخرج من البيت كي تخفف الصدامات التي بدأت تزداد بينهما مع تقدم أشهر الحمل. كما كان يدرك أنها تعيش صراعًا يكبر يومًا بعد يوم لأنها تعيش حياة لا تريدها.

أخبرتني فدوى أن الجميع كان يشعر بأن وداد تخبئ شيئًا، وكانت كلماتها عن يعرب بأنه «بلا ذوق» تجعلهم يضحكون. أما بالنسبة إلى حنيفة فقد وجدت في حمل وداد فرصة كي تمارس عليها قدرًا من المعرفة. واعتقد سليم أنها كانت

تريد أن تعبِّر لوداد عن محبتها لها، خاصةً أنها تحمل حفيدها من ابنها الأقرب إليها. لكن ليس كل من يريد أن يعبِّر عن الحب يعرف كيف يفعل ذلك. وقد أصر سليم على أن حنيفة كانت تحتفظ بشعور المحبة لوداد، وإن لم تُجِد إيصال ذلك الشعور إليها. كما حاولت وداد أن تُظهر أنها هادئة وسعيدة خلال ذروة أزمتها النفسية المتصاعدة. وفي أوج تعبها في أثناء الشهور الأخيرة من حملها كانت تتأنق أناقتها البسيطة، وتخرج لتمشي أمام منزل العائلة. بدا حملها جزءًا من جمالها. كانت تقطف الورد بينما تسير على الطريق الزراعي الذي ينتهي في مشقيتا. تمشي بتمهل، وكان كل مَن يراها يعرف أنها حبلى. ومع كل هذا الهدوء، كانت تلك الفترة أكثر أيامها معاناة. وسيكتشف سليم أنها في تلك الآونة أخذت قرارها بأن تغادره. حتى إنها صارحته بأن حملها هو ما يعوق هجرها له.

* * *

كان سليم يرى وداد تذهب إلى الدكان في ساحة القرية لإجراء اتصال هاتفي مع والدتها في حمص، حيث تجلس وبيدها سماعة الهاتف بين أكياس البزر وعلب الحلويات، وتخفض صوتها حتى لا ينصت الحاضرون إلى حديثها عن شؤون الحمل. لم تشتكِ وداد لسليم من الصعوبة التي تواجهها في التواصل مع والدتها، كان يرى ذلك ويشعر به. وعندما لاحظ أنها لم تذهب إلى الدكان لمدة أسبوع، اقترح عليها أن تذهب لتتصل بوالدتها، فأجابته حينها: «لكنني لم أعد أحتمل سرقة الكلام مع أمي سرقةً حتى لا يسمعني المجتمعون في الدكان. أريد أن أحفظ القليل من خصوصيتي. ألا يكفي الحمَّام الذي بنوه أهلك بعيدًا عن المنزل؟ أشعر بأنني أعيش هنا من غير كرامة، فالحديث يدور في أي شأن يخصني في المنازل كلها. إنهم يروننني غريبة، حتى إن أطفالًا نادوا عليَّ بِـ«الغريبة». أنا أموت هنا وأنت مَن يقتلني».

لم تكن وداد تعرف كيف تُظهر غضبها، بل كانت تكبت انفعالاتها، وعندما تغضب تتحدث بلغة مستمرة من غير انقطاع. وكانت، بالفعل، تشعر بأنها غريبة بينهم. وعندما اقترح سليم عليها أن تزور أهلها في حمص قبل أن يشتد الحمل عليها رفضت اقتراحه. واقترحت أن يذهبا إلى اللاذقية. وهناك دخلت كابين هاتف عمومي أمام مديرية البريد، وبقيت تتحدث لأكثر من ربع ساعة. وعندما خرجت أمسكت بيد سليم وكأنها تشكره. بدت ممتنةً له بعدما حقق

شيئًا من أمانيها. وهو أيضًا بدا سعيدًا للغاية وفرِحًا لفرحها.

كان عليهما السير إلى مشقيتا حيث يركبان في البوسطة التي تقلُّهما إلى اللاذقية عند الثالثة والنصف ظهرًا. وهو وقت يناسب وداد لأنها تضمن وجود أهلها في المنزل. كانا ينزلان عند زاوية شارع يقودهما إلى مبنى مديرية البريد، وهناك تدخل الكابين العمومي وتبقى لما يقرب ربع الساعة، بينما ينتظرها أمام المبنى ويتعرق. وفي المرة الثالثة اقترحت عليه أن ينتظرها تحت مظلة بائع العصائر. فكان يجلس على كرسي خشبي تحت المظلة ويشرب كأس عصير ريثما تنهي مكالماتها. وبدا الرجل في تلك الأوقات طفلها. كانت تحب رفقته، خصوصًا عندما تنهي المكالمة وتراه في انتظارها. تمنحه نظرة امتنان ثم تأخذ بيده، ويتمشيان في المدينة حتى موعد عودة البوسطة عند الساعة السابعة في رحلتها الأخيرة إلى مشقيتا. وعندما يصلان إلى مشقيتا يتمشيان في العتمة، متماسكَي الأيدي، إلى أن تطل عليهما قرى وادي الرميم، فيتباعدان، ما يعني وصولهما إلى ماخوس.

أحيانًا في اللاذقية كانت تطلب منه أن يجلسا متجاورين على صخرة مقابل البحر والمخيم الفلسطيني، وكان يفعل ذلك من أجلها. يأخذان علبة عصير ويمضيان إلى الشاطئ. يجلسان. يشربان العصير ويتأملان زرقة البحر وتراقص المراكب البيضاء في ميناء القصب. كانا يمسكان أيدي بعضهما بعضًا متحابين خلال مشوارهما في المدينة، وهي الأوقات التي كانت تذكِّرها بأيامهما في دمشق. لكن ماخوس كانت تقيد الرجل الجميل المنطلق. لم تستطع وداد أن تجعله يتحرر من قيد المكان. ودفعته نزهاتهما في اللاذقية إلى التفكير في أن عليه تخطي المكان والتحرر من سطوته. أحب الرجل العاطفي اللاذقية أيما حب، وأراد أن يسكن في المنطقة التي كانا يمضيان منها باتجاه البحر في بداية طريق الحرش إلى الشاطئ الجنوبي.

* * *

عندما تأكدت وداد من الحمل أخبرت سليم أن عليهما التحضير لمجيء الطفل. وكانت تخبره عن الحمل وحاجة المرأة الحامل إلى الراحة، وكيف أن مزاجها ممكن أن يتغير بسبب تغيرات هرمونية تحدث للمرأة الحامل. غير أنه كان ينقل مخاوفها إلى والدته حنيفة، التي كانت تنتمي إلى جيل لا يكترث بتفاصيل ترافق إحضار روح رهيفة إلى العالم القاسي. لذا كان استخفافها بما

يخبرها به يترك لديه بعضًا من الشعور بالهوان. الأمر الذي كانت تشعر به زوجته، خصوصًا أن جزءًا كبيرًا من تفاعلها مع الحمل كان كي تحبب ذاتها ذلك الأمر الذي حدث بصورة غير منتظرة، وكان من المرهق خوضه في بيئة طورت لديها الشعور بأنها غريمة.

على الرغم من ذلك لم تكن وداد التي خضعت إلى انتهاك متدرج لخصوصياتها تتخيل الجمع الغفير الذي حضر ولادتها. ولربما فكر سليم بعد مرور زمن أن تلك الولادة التي حضرتها والدته وأختاه رويدة وفدوى وزوجتا أخوَيه هناء وفاديا حضورًا متناوبًا، كانت القشة التي قصمت عالمهما. وكان عليه في حينها أن يعي أنها إذ تمسك بيديه وتشده إليها في انتظار خروج الابنة من رحمها إنما كانت تودِّعه، وقد شهدت لتوها إلى جانب آلام الولادة آلام الانتهاك النهائي لجسدها وخصوصيتها. كما شعرت بأنها أحضرت بنتًا لذلك الجمع الغفير الذي تناوب الدخول والخروج إليها في الغرفة. ونما في داخلها، في أثناء أشهر الحمل، شعور بأنها واحدة من قطيع البشر. لم يكن على تلك المرأة الحساسة والمتفردة أن تخوض تلك المغامرة التي لم تتوقف البشرية عن خوضها.

أخبرتني فدوى بتفاصيل الولادة ما بين واقع لما حدث، وافتراض لشعور وداد لحظة قدومي إلى الدنيا. ما إن حملت القابلة الابنة بين يديها، التي هي أنا، بحضور حنيفة ورويدة وفدوى وهناء وفاديا، وبعد إخراج الابنة من بين فخذي وداد التي شعرت في تلك اللحظات بأنها امرأة مهدورة ومنتهكة، نادَين على سليم وأخذ الابنة من القابلة. نظر إلى خديها المتورمين وعينيها المنتفختين، ومن ثَمَّ مد يديه إلى حضن وداد التي نظرت نحوه ونحو الطفلة بين يديه، التي هي أنا، نظرة حانقة متعبة. فأعادني إلى حضنه بسبب نظراتها. أكدت لي فدوى أن وداد لم تحملني إلى صدرها قَطُّ، حتى إنها لم تلمسني ولم تنظر إليَّ. وكانت نظراتها إلى سليم آخر النظرات التي جمعتهما. وهي نظرات حولتها سنوات الهجر إلى نظرات رجاء واستسلام تعلن النهاية.

آنذاك، ردني سليم إليه، وحدس عدم قبول وداد لوجودي، وكان قد قرأ عن رفض أمهات لأبنائهن في فترات تلي الإنجاب. ولم تفكر أي من الموجودات بالتخفيف من توتر المشهد. وإنما صارت نظراتهن مصوَّبة إلى وداد كأنهن يحاكمن امرأة ناقصة ترفض ابنتها. أخبرتني فدوى أنه لربما فكر سليم وأنا بين يديه أن الوقت قد حان ليغادر منزل العائلة. كأنما عرف لتوه ماذا عليه أن

يفعل. ولكنه عرف بعد فوات الأوان. والمؤكد أن رويدة هي مَن تطوعت أخيرًا وأخذتني إلى حجرها، لربما لهذا السبب بقيت لديها مكانة خاصة في قلبي.

غامت ذكريات كثيرة في مخيلة مَن حكوا لي حكاية مجيئي إلى الدنيا، وبقيت صورة مشتركة لديهم ووداد تشير إلى سليم كي يجلس بجوارها وسط نسوة غريبات عنها، حضرن ولادة ابنتها وتحلقن حول عريها، وهي تشد يدها إلى زوجها. لم يتخيل سليم آنذاك أن وداد كانت تودعه. لم يخطر له قبل أن تغادره أنها قررت أن تخرج من حياته على الرغم من حبها له. كما بدا رفضها الذهاب لزيارة أهلها وإصرارها على البقاء بجانبه والخروج معه في رحلاتهما إلى اللاذقية ليكونا معًا، ووحدهما، محاولةً لإفهامه أنها تريده ولا تريد العودة إلى أهلها. في الوقت نفسه تريد لهما حياة مستقلة عن عائلته. كانت وداد تحمل في داخلها رجاءً بأن يساعدها على البقاء معه. ولمَّا وجدت أن ضيقها من العيش لم يجعله يتخذ قرارًا بالمغادرة، قررت هي أن تغادر من غير رجعة. وبدا أنها أمضت شهور حملها تفك رباطها معه.

كان التحرر من الرجل العاطفي المسالم أمرًا شاقًّا عليها، حتى إنها كانت عالقة في مكان كان ينبغي لها أن تحب زوجها فيه أكثر. ذلك الشعور بأنها لم تمنحه كل الحب أساء للرجل بقية حياته. وقد ظلت تملأ عليه عواطفه، إذ تجنب العاطفة بعد رحيلها وكأنه تخلى عن الحب، وحكم على حياته بالبرود. فالإنسان من غير حب يتآكل ويقضم الصدأ روحه، وحتى جسده، كما يصير مثل الأدوات المنزلية المرمية على أطراف الطرقات في الريف. لم يستطع سليم التحرر من عاطفته القوية لوداد، بينما كانت حنيفة ترميها بأقسى العبارات. بدأ يعتبر أنها لم تهجره، بل هناك ما أساءها على نحو لم تستطع معه الصبر. لكن مع ذلك لم يكن سليم يملك إجابة لتساؤل حنيفة عن الأم الناقصة التي تركت ابنتها وراءها ورمتها إلى أهل زوجها.

كثيرًا ما تخيل سليم المرأة التي صاروا يدعونها بـ«الناقصة» وهي تجتاز أحراش غابة السنديان ليلة نفاسها. ويتساءل عن صعودها إلى جوار أحد الغرباء في شاحنة تنقل العمال في ساعات الفجر إلى اللاذقية. وكان يستبعد هذا الاحتمال، ويتصور أنها مشت حتى طريق مشقيتا ـ اللاذقية. ولربما توقفت لها سيارة عابرة، وما إن وصلت إلى اللاذقية حتى انطلقت إلى عالمها الذي لم يخبرني أحد عنه.

* * *

مهما يكُن من أمر رحيلها، ومهما تكن تصورات كل فرد في العائلة عن طريقة هروبها، فإن كل ما قيل عن رحيل أمي كان افتراضًا. وروت لي هناء زوجة عمي يعرب فصلًا من حكاية الهروب. ولا أعرف لماذا أخفاه عني سليم. حتى إنني غير متأكدة إن كان فصلًا حقيقيًّا، أو إن كان سليم يعرفه، أو إن كانت هناء تحاول أن تقول لي إن زوجها يعرب لم يترك أخاه الكبير وحيدًا في أزمته مع أنه كان يستحق أن يُترَك وحيدًا. وكان واضحًا من كلامها أنها تحقد على أبي وأمي. وتلك النبرة العدائية جعلتني أشكك في روايتها.

حدثتني هناء كيف أن يعرب اقتحم مع مجموعة من زملائه من سرايا الدفاع منزل أهل وداد في حمص. وحدثتني عن التحقيق مع أهل المنزل لمعرفة مكان وداد، وعن الضغوط التي مارسوها على العائلة ليعرفوا منهم مكان وجود وداد. وكيف أنهم بعد أن أنكرت العائلة معرفتها بمكان وجود ابنتها راحوا يخربون اللوحات والتُّحف في منزل عائلة وداد. وتباهت هناء بأن أهل وداد حتى لم يكونوا قادرين على تقديم شكوى ضد يعرب ومَن كان معه بسبب انتهاكهم لحرمة المنزل وتخريب محتوياته، فقائد السرايا لم يكُن يعاقب رجاله. ثم إن يعرب كان يدافع عن كرامة عائلته التي هدرتها زوجة أخيه.

كان كلام هناء مقززًا ولم أرتَح لسماعه، وكأنها نسيت أن الكلام كان عن أمي، أو كأنها أرادت أن تستعرض قوة زوجها العسكري المتطوع في سرايا الدفاع. وكنت أستمع إلى رواية هناء وأنا أتخيل عناصر السرايا يتجولون في أرجاء المنزل، يتأملون المشربيات واللوحات الفنية والتُّحف كما لو أن الجمال يُشعرهم بالعار.

أرادت أن تخبرني أن سطوة يعرب لم تكن من انضوائه تحت سرايا الدفاع التي لم يكن لباقي وحدات الجيش سلطة على عناصرها، وإنما من شخصيته التي رافقته إلى الجيش الشعبي حيث نُقل بعد تفكيك السرايا، فقد تعارك مع رؤسائه الجدد فأحالوه إلى التحقيق، ومن ثَمَّ إلى التقاعد المبكر. وكدت أقول لها إنها نسيت أن تخبرني أن زوجها مات من جراء إسرافه في شرب عرق التين الذي كان يحضِّره بنفسه، وكان سليم والجميع يتقززون من رائحته. وقد أمضى آخر سنوات حياته شخصًا لا يُحتمل بسبب سكره الدائم.

سمعتُ حكايات كثيرة عن أمي، ومنها حكاية فاديا زوجة عمي كفاح التي لم تدافع عن وداد، وكانت لا تطيق يعرب. وألمحت إلى التعليقات المزعجة التي كانت تصل إلى حد التحرش اللفظي مما كان يعرب يمارسه على زوجة أخيه.

ولم يكن سليم يأخذ أهمية كبيرة لأخيه الصغير الذي غيَّرته الخدمة في السرايا. خصوصًا أن سلوكه كان متعجرفًا مع جميع أفراد العائلة، إلى حد أن الجميع كانوا ينفرون منه، فخدمته في السرايا جعلته يعتقد أن كل الدنيا ملكه. وكان جميع أفراد العائلة يسمعون الشجارات التي كانت تحدث بين سليم ووداد بسبب سلوك أخيه.

عمتي رويدة هي مَن جعلتني أشعر باللغز الكبير الذي في حياتي، ذلك لأنها ألحت عليَّ أن أترك الماضي وشأنه، وأن ألتفت إلى حياتي وإلى الصغيرين اللذين كانت تحبهما حبًّا كبيرًا، وكانت لهما بمنزلة الجدة. لكن رويدة أصرت عليَّ كي أتوقف عن السؤال. كانت تنظر إليَّ بعينَي الحب والرحمة، وشعرت في إصرارها ذاك بأنها كانت تشفق عليَّ، ولا تريد لي أن أرى جانبًا أكثر قسوة مما عشت. رويدة أكثر مَن أحبني، شعرت بهذا من غير كلمات كثيرة.

* * *

أنا نسرين... جمعت حكاية أمي وداد في رأسي من روايات كثيرة. وداخلني تساؤل حول حدود التعدي الذي كان يعرب يمارسه على زوجة أخيه. فهو كان يرى أن له سطوة على البشر والحجر، وعلى الجميع أن يخضعوا له ويأتمروا بأمره. بل أتساءل إن كان تصرفه مع عائلة وداد هو ما منع عليها التفكير بالعودة، ولربما كان السبب في فرارها. لربما وداد لم تهجرني وإنما فرَّت مذعورة كما فعل أهلها. وهكذا بدأت أبحث عن مسوِّغات لقرار أمي بالرحيل. فهي أمي، مع كل ما حدث، لا يوجد ما يغيِّر هذه الحقيقة.

ليس لأحد أن يجيب عن تساؤلي المرير ذاك، ولربما كانت أمي ناجية من اغتصاب، مَن يعرف؟

يعرب ميت وأمي غائبة والأحياء متحفظون.

مَن كان يستطيع أن يقول لي إن الاعتداء على أمي لم يحدث؟ ومَن يؤكد لي أنني ابنة سليم بن حنيفة...؟

لا أحد.

٣

كنت دائمًا أراقب سليم بن حنيفة بعينَي الطفلة التي ليس لديها مَن تلجأ إليه غيره. وكنت أحكي لطفلَي عنه كونهما لم يعرفاه إلا في زيارات قليلة، ولم أخبرهما حكاية وداد، فقد كانا صغيرين ولم يكونا ليدركا المشاعر عندما نتحدث عنها؛ الأطفال يعيشون حياتهم ونادرًا ما ينشغلون بما يشغل الكبار مثل معارك الذاكرة أو النسيان.

بدأ احتمال عودة وداد ينطفئ بمرور السنوات. وتكاثرت الحكايات التي تطعن بأمومة مَن تركت ابنتها، وبشرف مَن تركت زوجها. اشترى سليم منزلًا في اللاذقية في منطقة قريبة من الشارع الذي كان يعبره برفقة وداد إلى البحر. لم يتزوج. واستمر يقص عليَّ حكايات عن العالم خارج القرية الوادعة التي تغفو وتصحو على أصوات بنات آوى من عمق وادي الرميم. وكان يُنظَر إليه على أنه شذ عن تاريخ العائلة بعزوفه عن النساء، فوالدته حنيفة كانت الزوجة الثالثة لأبيه؛ الأولى تُوفِّيت، والثانية تركته من أجل رجل آخر. وأخوه يعرب كان يشهر مغامراته المتعددة. وحتى كفاح الذي تزوج امرأة واحدة ولم تُعرف عنه أي مغامرات، ليس إخلاصًا منه لزوجته وإنما خوفًا من عائلتها المتنفذة. لكن في حقيقة الأمر كان سليم متحفظًا وكتومًا، غير أنه لم يعِش من غير نساء، بل جمعته علاقات عابرة مع نساء لا يطمحن إلى الزواج، وقد حرره الألم لفقد وداد من كثير من الأفكار التقليدية، وصنع منه الهجر رجلًا يعبُر حياة شركائه من غير أن يسعى إلى تغييرها. كما بات يعتبر الرباط الوحيد الذي له قداسة أن يجمع البشر هو الحرية، وأصبح الحب لصيقًا بالحرية.

استغرق سليم جزءًا من حياته وهو يحاول أن يجبر نفسه على ألا يفكر بوداد. وكانت حياته برمتها مجرد اقتطاع من حياة سيدة استثنائية عاش معها لفترة قصيرة. أما باقي عمره فكان تجنبًا لتلك المشاعر الآسرة التي جاءت ومن ثَمَّ ذهبت معها، حتى بدت رجولته من ابتكارها. وقد نظر إليها كعاشقة أصيلة، عندما تهجر فإنها تهجر من غير أن تترك أسفًا وراءها. وبعد فترة من رحيلها صارح والدته بحبه لوداد حتى في هجرانها له، وطلب منها التوقف عن شتم زوجته وتمنِّي الأسوأ لها، وكاد يودي بعقل حنيفة. أما فدوى فقد نظرت إلى الحادثة على أنها انفجار عاطفي، ووحدها من بين أفراد العائلة مَن كانت تدافع عن وداد، وتُحمِّل سليم مسؤولية الهجر. قالت له إن المرأة المطعونة

في الحب لا تنتظر من الرجل أن يعبِّر لها عن حبه بكلام المشاعر فقط، بل تريده أن يراعي مشاعرها ويبدد هواجسها بالأفعال أيضًا. وكان على سليم، على الأقل، أن يضع حدًّا لأخيه يعرب. ولم يكن سليم يعطي شكوى وداد أهمية في هذا الجانب وكان يرى أخاه شابًّا طائشًا.

بالنسبة إليَّ، وبعدما خبرتُ شؤون الحياة، أعتقد أن أمي وداد كانت شغوفًا بألم عميق، وهو أن يدرك الإنسان عزلته وسط العالم، وأن لا عزاء يحمله الزمن أمام الخسارات. وبرحيلها حررت سليم من الأوهام جميعها. ليس أجمل وأصعب من أن يتحرر المرء من الأوهام، ولو أن لكل إنسان أوهامه التي يقدسها. عندما صنعتُ تجربتي في الحياة أصبحت أفكر بوداد على نحو مختلف. وأظن أنها كانت تفسر نفسها بعاطفتَي الحب والكراهية، ولربما منحها العابر سليم بن حنيفة بقصتهما أغنى دروس حياتها، بأن تضع عاطفتها في مكان وجسدها في مكان آخر. وقد أخبرني سليم أنهما في الزيارة الأخيرة لهما معًا إلى اللاذقية قبل أن تضع حملها بأسابيع قليلة، جلسا على مقعدين خشبيين متقابلين في حديقة «أبي تمام»، ولم تكن قادرة بسبب تقدم الحمل على السير إلى الكورنيش، فجلسا في الحديقة، وكانت تفصلهما مسافة تصل إلى حدِّ إذا رآهما أحد من بعيد لاعتقد أنهما يجلسان كل بمفرده. صارحها وهما يواجهان إحباط الحياة الزوجية:

ـ ليس لديَّ حلول للبؤس الذي تشعرين به. وربما تساعدنا الطفلة على الاستمرار في زواجنا. لكن أتظنين البقاء معي أمرًا خطيرًا عليكِ بالفعل؟

أعقبت وداد:

ـ ليس خطيرًا، لكنك لا تفهمني.

وتركته بعد فترة وجيزة. بينما لم يستطع الرجل العاطفي تفكيك الأذية التي طالته خلال حياته برمتها.

* * *

كان كارم يمتلك معرفة نظرية عن الحياة في سورية، فوجد أن لوداد قيمًا ليبرالية، ومن البديهي أنها لم تحتمل العيش في ظل رجل يساري المُعتقد. وهو تحليل وقفتُ عنده على الرغم مما فيه من تجريد وغرابة، لكن ماذا كنت لأقول! كان زوجي صاحب نظريات أكثر مما كان إنسانيًّا.

عندما عرفت من عمتي رويدة عن خوف سليم ووحدته، وعدم رغبته بأن

يوتر حياتي المستقرة في الإمارات، عدت إليه. وفي الطريق إلى اللاذقية أردت لحياتي أن تنتهي... لأنني بدأت أعتبرها مسروقة من حياة رجل لم أستطع الجزم بأنه أبي، فهروب أمي جعل الشك يطال كل تفصيل من حياتي، حتى أبوة سليم لي. وما من قسوة كانت تضاهي قسوة الشك الذي طالني حيال أبوته لي.

كان سليم يعرف جميع الأطفال الذين يزورونه في القرية ويسرد لهم قصصًا. وقد توقف عن قيادة السيارة بنفسه، وبدأ عامر ابن أخته رويدة يرافقه، وعرفتُ أن عامر كان ينام على سريري. كنت متأكدة أن الحياة ستعوض سليم بالأصحاب دائمًا. وكنت أخبر كارم أنه لا يمكن لرجل مثل سليم أن يشكو الوحدة، بل ينميها عبر عاطفة يمنحها للغرباء. ولربما أكثر العبارات التي تشبه سليم تلك التي تركها له روائي مشهور من مشقيتا على روايته «الوباء»: «إلى الأخير من زمانه في المدينة الهاجعة الأثيرية».

كان سليم بالفعل ينتمي إلى زمان قديم. أما بالنسبة إليَّ فهو لم يتوقف عن لعب دور روبيرتو بينيني في فيلم «الحياة جميلة». إنني حتى خروجي من سورية لم أكن أدرك أنني كنت أعيش حرة في بلد شاق على الإنسان فيه أن يكون حرًّا، بين أناس قهرتهم الحياة ضد طبيعتهم. وكم مضى من السنوات حتى أدركتُ أن سليم عرف امرأة حقيقية! الأمر الذي جعله ينظر إليها على أنها شمس حياته. وكثيرًا ما يَسِمُ الأشخاص الاستثنائيون حياة أولئك الذين غودروا بصفة من صفات الأمل. بقي سليم واهمًا بأن وداد سوف ترجع، وبأنها لن تقوى على تركه وابنته، لكن لا أظن أنني كنت داخل حساباتها.

انتظرها سليم لسنوات. كما صارحني بأنه عندما تخرجت من قسم اللغة الإنجليزية فكر بالبحث عنها وإخبارها أن الابنة التي تركتها رضيعةً قد تخرجت، وسوف تتزوج وتمضي إلى حياتها. أعرف أنه أراد إخبار زوجته بأنه عاد حرًّا. وكأنه بات يعتبر البنت التي أنجبتها والدتها كي تنقذ زواجها به مسؤوليته وحده. لكن وداد لم تأتِ. كما أخبرني مرة وهو يقسر نفسه على الابتسام، أنه ما إن دخل المنزل في شارع بور سعيد، الذي لا تعرف وداد عنوانه، بعد أن عاد من زيارته الأولى إلى منزلنا في الشارقة، حتى وجد نفسه يناديها.

وهكذا، عندما علمتُ عبر الهاتف بحال سليم أدركت أن انتظاره شارف على النهاية. بعد ستة وثلاثين عامًا من الانتظار لم يعُد للرجل العاطفي سبب كي يعيش.

الفصل الثالث

البدايات والنهايات

نسرين ١

أذكر سليم في منزلنا في ماخوس وكان يأخذني من بين عمتَي لنقضي مشوارًا، ويأخذ أبناء عمومتي معنا. كنت أراه بمنزلة الأب لأطفال عدة. وكان الأطفال يحبونه في مدرسة القرية وفي المنزل الواسع الذي كنا نسكنه. وقد عشت معه على هامش عائلة كبيرة. وأحاطني قربي منه بالاهتمام من الآخرين، لأنه كان محبوبًا. كما نقل إليَّ تلك الهبة بأن أكون محبوبة بين الناس. كذلك أحاطني كارم لسنوات بالحب. وجهلي بأن أسعده وأكون امرأته الأثيرة جعلني أشعر بأنه يتبناني فيتعامل معي كما لو كنت طفلته.

كان كارم يكبرني بعامين، وحاول في البداية أن يأخذ دور أبي. حتى إنني أحتار عندما أتذكر تفاصيل عشتها مع رجلَي حياتي فيمن أحبني أكثر. لقد عشت في كنف رجلين أحباني، غير أن هذا لم يجعل مني امرأة سعيدة، وبدأت باكرًا أشعر بأنني امرأة جاحدة لديها أب محب ملأ طفولتها بالحياة، وزوج محب تعيش برفقته، لكنني لم أكن سعيدة في حياتي. لم أكن أتذمر أمام مَن يجلس معي ويتحدث إليَّ، ولن يصدق أحد غيري أنني لم أكن سعيدة في حياتي. كنت أشعر بأن في داخلي جزءًا مبتورًا ولم أكن أتوقف عن التفكير فيه.

جنبني سليم فضول أهالي القرية، وتحاشيتُ بوجود كارم فضول الأصدقاء. لم أحكِ له بالتفصيل حكاية أمي التي لم أكن أعرف خواتيمها، إذ لم يروِها أحد لي بصورة مؤكدة. وقد سمعت أحاديث سليم وفاديا وهناء وفدوى. ولم يجبني أحدهم لماذا تركتني أمي؟ وكان يجب أن أحكي كي أتحرر من ثقل الحكاية، لكن لمَن كنت سأحكي؟

بقيتُ أذكر نظرات حنيفة نحوي عندما كنت طفلة. ولم يكن يسيرًا عليَّ تفسير نظراتها، كما لم أستطع أن أجزم إن كانت حانقة عليَّ أو آسفة من

أجلي. غير أنني مثل الجميع في ذلك المنزل كنت أنتبه إلى خصوصيتي لديها. فأنا ابنة ابنها المحبوب، وكانت تحرص على أن تجلسني في حجرها، بينما يعرب والآخرون يرمقونها بشيء من العداء كونها تفضلني على أبنائهم؛ ما جعل سليم يحاول دائمًا إصلاح المسألة بين أبناء عمومتي وبيني.

وهكذا نشأت وسط علاقات كانت تضمر أكثر مما تظهر. ولم أكن أعي في ذلك الزمان القديم سبب الأجواء المشحونة التي كنت أسكن فيها، وخلت الغرابة التي أحاطتني أنها العائلة. لكن بعد مُضي كل تلك السنوات أشعر بأن تلك الأجواء التي دعوتها بالعائلة كانت مأزق سليم الذي دفعه إلى التعلق بي، ولربما كانت المأزق الذي دفع بوداد إلى المغادرة.

ينغلق الماضي على أسئلته، ولا أملك سوى القبول بما صنعني على الرغم من جهلي به.

* * *

منذ السنوات الأولى لإنجابي ليال تجاوزت فكرة أنني أصبحت أمًّا، غير أن رفضًا لتلك الأمومة لم يتوقف عن النمو في داخلي، دائمًا كنت أشعر بأنها مسؤوليتي. ومع كميت خَف شعوري بثقل الأمومة. الشعور بالمسؤولية يقتل الأفراح. وفي أحيان كثيرة كنت أغبط وداد على استهتارها بي، مع أنني أعرف اطمئنانها عليَّ مع سليم. ومن جراء هذه المقاربة بدأت أتساءل: لو كنت تركت ابنتي وابني مع كارم وعدت إلى اللاذقية أو ذهبت إلى بلد آخر، لو أنني غبت عنهما مثلما فعلت أمي، فأي حياة كانا ليعيشاها؟

بمرور الوقت توقفت عن أن أشغل نفسي بالافتراضات. كانت حياتي واضحة. أحبني كارم، وأنا ممتنة له لأجل محبته. ممتنة فقط ولا أدين له بحياتي. وما كان يجعلني أتردد في الهروب من حياة مرسومة بالمسطرة هما طفلاي. في الأوقات التي كنت أكبح نفسي فيها عن الهروب كنت أفهم لِمَ لَم تحملني وداد إلى صدرها، وأدركت سبب مغادرتها لي قبل أن تأسرها الأمومة. أفكر أحيانًا أن وداد كانت تفهم الحياة أكثرِ مني، أو أنها كانت تفهم نفسها. لا أشك في أنها عاشت حياة طبيعية، وأنها أَحبت وكرِهت وأُحِبت وكُرِهَت، ولم تعِش مثلي على حب الأب وحب الزوج.

عشت دائمًا بصفتي امرأة رجل واحد. كانت تجربتي متواضعة، ما أوهمني بالنقص. كنت إذا ما واجهت غريبًا أرتبك، وإذا تقرب أحدهم مني أجفل وأبتعد.

وفي داخلي كانت لديَّ رغبة عميقة في أن أبقي الآخرين بعيدين عني. كنت أراقب مع شعور بالراحة ابتعاد مَن فكر بالتقرب مني. وبدأت باكرًا أعتقد بأنني أكثر جبنًا من أن أغادر عالمي الآمن حيث توقف الجميع عن مفاجأتي، وبات كل شيء معتادًا ومتوقعًا. أنا نفسي كنت مملة ولا أخرج عن توقعات الآخرين حيالي. كادت الرتابة تسلبني الحرية في أن أتعلم وأعرف وأفاجئ نفسي.

لا أستطيع تقدير زمن تعارفي أنا وكارم. كان خلال جزء كبير من حياتي كلَّ مَن عرفت. شملت صورته كل ذكرياتي عن الآخر. بدأت أفكر بعد مُضي السنوات الطويلة من حياتنا معًا في أنه أراد فتاة من غير آمال كي يرتبط بها. أراد أن يبدأ قصة مع إحداهن من غير أن تفكر في الغد، وهذا ما كنت عليه حقًّا. لكن أيعيش أحدهم حياة كاملة من غير آمال بأن يصنع أمرًا خاصًّا به؟

في فترة من حياتي لم أعد أشعر بأن العائلة التي صنعتها أمر خاص بي، وانقضت سنوات من عمري في متاهة خاطئة. حطمني كارم بحبه لي. قيدني برقته في البدايات، ثم رمى بي إلى جحيم التجاهل. حتى إنني بتُّ أشك في طبيعة ذلك الحب بعدما حطمني برغبته في أن أشاركه حياته.

أحضرني كارم إلى الشارقة حيث كانت الحياة متواضعة، ولم يكن يوجد مكان نذهب إليه سوى ميغا مول. وكنا نجلس في الكافيتريا ونتفرج على الناس من جنسيات كثيرة. كان عمل كارم آنذاك في دبي وكان دائم الشكوى في المنزل بسبب المسافة التي يقطعها يوميًّا. وجدت نفسي بسبب ذلك أصحو قبل أن يصحو هو، أُعدُّ له إفطاره وأجهز له ثيابه، وكان يخرج على عجلة من الاستوديو الذي كنا نعيش فيه ويعود لينام من فوره. أرهقتني الحياة في الشارقة ووجدتُ متنفسًا عبر اشتراك شهري في فندق يطل على الشاطئ. كنتُ أسبح هناك بين أسبوع وآخر من غير أن أستطيع منع نفسي عن التفكير في اللاذقية.

كنت أبقى وحدي ساعات طويلة أنتظر كارم. أخبرني بأن المعيشة في دبي مكلفة بالنسبة إلى العائلات الوافدة الجديدة، وكنت أرى العالم وأعرفه من خلاله. مرة تهت عن المنزل في طريق عودتي وبكيت أمام أناس مجهولين. لم أعرف كيف أدلهم كي يساعدوني. على الرغم من إلمامي بالإنجليزية، فإنها خذلتني. وكانت الشوارع والبيوت والناس متشابهين بالنسبة إليَّ. لم أقص على كارم حكاية ضياعي. خجلتُ. وتجنبت الخروج لاستكشاف أماكن

جديدة ما لم يكن برفقتي. قيدني كارم بوجوده منذ البداية.

***

عندما أمضيت الأشهر الثلاثة رفقة سليم، كان قد مضى أربعة عشر عامًا لي في الإمارات، مرميةً إلى عالم تقاذفتني فيه المسؤوليات واحدة تلو الأخرى. وكنت أعيش وسط وعيي بأنني شخص مؤقت يمكن أن يُستبدل، ومطلوب مني بصورة دائمة بذل كل ما لديَّ كي أثبت للآخرين أنني ناجحة. وفي أثناء نقاهة سليم بدأت أنظر إلى ليال وكميت بصورة مختلفة. وبدأت أستغربهما عندما كانا يتحدثان معي عبر محادثة فيديو شات، وأستغرب سجالهما وتعاركهما للحديث معي وسرد قصص يومياتهما عليَّ. كما بدأت أنظر إلى كارم بوصفه شخصًا من حياة لم أعد أريدها.

بدأت اللاذقية تغويني مجددًا، والحاجة إلى التحرر من أعباء العيش في الإمارات أخذت تضغط عليَّ. بدأ حلم العودة يراودني، وفكرتُ كيف أن ابتعادًا طفيفًا عن حياتي جعلني أشعر بالاستغراب منها. أنا التي كنت أبدو منسجمة مع حياتي، وربما تحسدني كثيرات. فما كان حال وداد التي لم تكن مرتاحة في حياتها مع عائلة أبي، وربما كان زواجها بسليم ضربًا من المجازفة؟ العائلة بذاتها قد تكون ضربًا من المجازفة. أقول هذا مع أنني لا أتخيل حياتي من دون عائلتي.

اكتشفت وأنا في اللاذقية ألا طاقة لديَّ للبحث في تاريخ وداد. لم أكن أشعر، على الرغم من نبرة سليم المتصالحة والودود تجاهها، بأنها تعني لي كثيرًا. غير أن للأمكنة ذاكرتها، ما يفسر السطوة العجيبة لحكاية وداد التي بدأت تسيِّرني منذ وصولي إلى مطار اللاذقية، قبل أن يتحول إلى مطار عسكري روسي.

أنا لا أعرف أمي، حتى لو رأيتها لن أعرفها، ولا أختلق الدراما مع حاجتي إلى حكاية تؤنسني. أنا أجهل أمي، لا يوجد ما هو أكثر درامية من هذه الحقيقة البسيطة، ولطالما ترك جهلي بها نقصًا في داخلي كان ينمو من غير إرادة مني مع السنوات.

لا أعتبر نفسي أبالغ في الكلام إن قلت وأنا في اللاذقية بعيدة عن طفلَي إنه قد تأكد لي أنني أجهل نفسي أيضًا. وتساءلت كيف لمدينة خرجتُ منها منذ سنوات طويلة أن تتحكم في أفكاري؟ المدينة الخجول الهادئة التي باتت

ُ

مرمية في الذاكرة البعيدة لسكانها لا تتيح النسيان، ولا تلح في طلب تذكّرها. تشبه العاشقة. وكنت أشعر بقلب تلك الفاتنة المدفونة تحت دثار القبح ينبض في صدري. تذكرت، بينما كنت أسير في شارع الكورنيش الغربي، الأوقات التي كان سليم يحملني فيها كي يلتقي بفدوى، ويتركانني أراقب السفن وأنا جالسة على كرسي واطئ في مقهى «العصافيري». بقيت أجلس على ذلك الكرسي الواطئ لثلاث ساعات خلال يوم في الشهر ولمدة أربع سنوات، قبل أن تنتقل فدوى مع زوجها إلى حمص وتنجب هناك. وأدرك الآن أن ذلك الكرسي الواطئ كان حصتي من اللاذقية، وربما كان حصتي من العالم برمته.

كيف لي أن أستعيد الأحاديث التي لم أكن أفهم ما يصل إليَّ منها؟ كانا يتحدثان عن امرأة اسمها وداد، واستنتجتُ من نظراتهما العاطفية نحوي أن ثمة علاقة تربطني بها. وعندما أخذوا بياناتي في المدرسة قلت بصوت عالٍ إن وداد هي أمي. لم يخبرني أحد بذلك. لكن اسمها خرج من داخلي بنبرة عالية مفاجئة وأضحك المعلمة التي لم تكن تعرف حكايتي. وهكذا أدركت سنةً بعد أخرى وجود خسارات لا يربح المرء بعدها شيئًا. توجد قصص تحطم البشر، وحياتي بدأت محطمة. كل ما فعله سليم كان نوعًا من رد الأقدار. لكن توجد أقدار لا تُرَد. والسنوات التي مضت في كنف سليم كانت تبدد الحقيقة في مخيلتي، وتبعد عني حقيقة فقدان الأم.

كثيرًا ما فضلتُ الحقائق على العيش في الأمنيات. لا أريد أن أقسو على سليم، فأنا أحبه، وحياتي من غيره كانت لتكون أسوأ وأكثر قسوة. غير أنني كنت أحتاج إلى أن يروي لي كل ما حدث في مرحلة مبكرة من حياتي، وأن يخبرني عن طباع وداد وعاداتها، عن طريقة استيقاظها وتسريحتها وثيابها، وعن رائحتها ووجودها في منزلنا، عن المنزل ذاته عندما كانت تعيش بينهم. وقد تشكلت فكرتي عنها من شذرات حاقدة مقتضبة بعيدة. كما لو أن أحدهم حذر الجميع من ذِكر اسمها في المنزل. وكان لسليم أسبابه الخاصة كي لا يأتي على ذكرها.

كنت أراقب سليم من الكرسي الواطئ عندما كان يتحدث إلى فدوى، وكان يبدو لي شخصًا آخر. وحتى لا ينتبه ذلك الشخص الانفعالي المتألم، الذي كان أبي ولم يكنه، كنت أنقل نظري إلى السفن في الميناء وإلى العابرين من جواري، الذين بدورهم كانوا يحيونني، ويبتسمون في وجهي من غير أن يعرفوا شيئًا عن ألمي، وكانت تلك المرات الأولى التي أشعر فيها بالاغتراب

وعدم الانتماء إلى ما يحيط بي. كان الناس لطفاء معي دائمًا، لكن اختلاف سليم بين مكان وآخر جعلني أشك فيما أراه على وجوههم. بقدر ما كنتُ أحب سليم وأشعر برعايته لي في منزل العائلة، كنت أعجب بلهفته عندما يلتقي بفدوى.

عندما أخبرتنا معلمة اللغة العربية بأن كل فتاة بأبيها معجبة، جاء إلى خاطري ذلك الأب الانفعالي في «العصافيري»، لا ذلك الهادئ في المنزل. وكلاهما كان حقيقيًّا. غير أن أحدهما تصالح مع فقدان وداد والآخر أرادها بكل جوارحه. وكلاهما كان الرجل نفسه. وهكذا أدركتُ باكرًا أن الإنسان مثل الجحيم مصنوع على طبقات. وعرفت بعد سنوات طويلة من تجربتي كيف يصير المرء عندما يقرر الانفصال مقسومًا إلى جزأين؛ أحدهما يريد أن يرحل، والآخر يريد أن يبقى. الانفصال يشبه استئصال السرطان، لا أحد يؤكد إن كنتِ ستنجين بعده.

عندما مررت بمقهى «العصافيري» شعرت بأنني أجتاز طفولتي، لكنني تجنبت النظر إلى المكان. مع زعمي أنني عشت طفولة هانئة فإن شعوري بالتوجس في منزل العائلة لم يكن ليفارقني كلما خرج سليم من المنزل لقضاء عمل ما. وكنت ما إن يعود حتى أجري إليه. كل الأبناء يعرفون أو يعيشون هذه التفاصيل. ومن كانوا يعيشون معنا كانوا يبالغون في تعليقاتهم، لكنني لم أخجل من اندفاعي إلى سليم، ولم تحبطني نظراتهم. وعندما أصبحت أجيد التعبير عن نفسي أكثر، أصبحت أطلب منه أن يأخذني معه، وكان يفعل ذلك. فكنت أصغر مَن دخل مكتبة الشاطئ في شارع أنطاكيا، وأصغر مَن دخل المكاتب العقارية والمالية ودائرة البريد والمياه والكهرباء. كبرت على الشعور باللطف الذي كان الآخرون يحيطونني به. جلستُ على أحسن المقاعد في المكاتب الحكومية، وقفت في أحسن الزوايا في المتاجر التي كنا ندخلها، وشربت المياه من أي سبيل يصادفنا قبل أن يعتاد سليم إحضارَ عبوة مياه صغيرة من أجلي. هذه هي اللاذقية التي عرفتها، وكان الذهاب إليها يشبه النزهة. كما نمَّت لديَّ شعورًا بالقرب من الغرباء.

أحبني الناس من غير أن يعرفوا بأن أمي غادرتني من غير أن تضمني إليها. علمني أبي أن أُدخل الأمكنة وأصير الجزء المرح فيها، أن أبتسم لكل الابتسامات التي أُقابَل بها، وأضحك عندما يضحكون معي، وأن أحتفظ لنفسي بتعليقاتي ما إن أشعر بأنها لن تُفهَم لدى الكبار أو تحمل إساءة لهم. لربما

هذه الصفات التي صنعها سليم هي ما جعلت مني مستمعة جيدة، وهي السمة التي تناقلها عني أصدقاء كارم.

لم يعد يعني لي شيئًا ما كان أصدقاؤه يقولونه عني. لكن أحيانًا في البداية كنت أشعر بشيء من الإهانة. كنت حساسة جدًّا. ولم يكن أحد يبذل جهدًا كي يفهمني. كنت وافدة جديدة. وحتى الشمس هناك كانت جديدة عليَّ. وتسبب الطقس الجديد في عدم انتظام الهرمونات لديَّ. كما اضطررت إلى تناول أدوية تنظم هرموناتي، وكانت تنتظم لمدة ثم أنتكس من جديد. لم أكن أستطيع أن أقدِّر متى كان جسدي يخذلني. كنت أعيش الغربة فعليًّا وحدي، وليس لديَّ الطاقة بعد تلك السنوات لسرد الأوجاع التي قاسيتها وحدي. كنت خارج بلدي وكانت تجربة صعبة بكل المقاييس.

* * *

مع بلوغ ليال عمر الخامسة أبدى كارم رغبته في أن أقص شعرها بصورة مشابهة لشعري. لكنني رفضت اقتراحه، وعوضًا عن أن أسرِّح شعرها مثل تسريحة شعري رغبتُ في أن أرفض هيئتي، التي لطالما حملت ندبة العيش في بيت الجدة. كنت أمقت جسمي وأمضيت فترات طويلة أتصالح مع جسدي.

لم يكن كارم يسأل كثيرًا عن تفاصيل حياتي. كان مكتفيًا بما أخبره إياه ولم يكن يعرف حكاية التسريحة التي ميزتني. قصصت عليه حكاية التسريحة الفرنسية، ولم يخطر لأي منا أن الجزء الأجمل فينا قد يحمل آثار حوادث مؤلمة. ربما تنشئ الندوب عطبًا نفسيًّا مؤذيًا، وربما تساعدنا على إظهار أجمل ما فينا. ولا يهتم أحد إن كان أجمل ما فينا هو الجزء المعطوب بالنسبة إلينا نحن. كنت أهمل الاهتمام بتسريحة شعري، وأتركه عفويًّا بالهيئة التي أنجزها لي الحلاق من مشقيتا. وبقيتُ غائبة في عالمي الداخلي الذي كلما اكتشفتُ جزءًا منه، أفاجأ بأن جزءًا عميقًا آخر كان ينفتح أمامي.

تدربت برفقة سليم على أن أرتب آلامي، وعلى أن أبدو جميلة وذكية دائمًا كي أتيح له الاستمرار في التباهي بي. كنت أعرف أن الآخرين يشعرونه بأنه في رهان، ولم أكن أريد لصورته أن تهتز. أما برفقة كارم فكان لحياتي شأن مختلف، وقد أردت أن أتخلص من الرهان القديم وأن أبدو نمطية وأصنع عائلة وأنشئ أبناءً. ولم أفكر للحظة واحدة في أن كارم أرادني لاختلافي، وأنه كان

ينتظر مني أن أبقى مختلفة. بذلك أفهم إحباطه مني، وبقيت لا أغفر له ذلك الإحباط، فأنا على الأقل لم أخدعه. ووددت لو كنت مثل باقي الأمهات لا تعيدهن تسريحة شعر بناتهن إلى طفولتهن المؤلمة.

افترضتُ أنني أعرف كارم. وكان لشدة إعجابه بصورتي القديمة في ذهنه، يريد لابنتنا أن تشبهني. لكن كنت أفكر بأنني أحضرتُ طفلين إلى عالم متهالك لا مخرج منه. وكنت متهافتة كي أصون فرديتهما حتى أمام رغبة كارم في أن يكونا على صورتنا. لربما ثقل المسؤولية التي ألقيتها على نفسي هو ما جعلني أمضي وحيدة. وفي النهاية تعبت.

عشت جزءًا من حياتي مع رجل نمطي يتوقع الاختلاف من الآخر، وهذا جزء من مصيبتي. ربما كثير من الرجال هكذا. وما يمنحني العزاء أن الرجلين اللذين شغلا عالمي كانا رجلين جميلين إلى درجة أتساءل فيها عن مصدر آلامي، ولا أجد سببًا للألم سوى طفولتي البعيدة الناقصة، التي يزعم سليم أنها كانت طفولة مثالية. وأستطيع موافقته على زعمه أن طفولتي كانت مثالية لأنه حاول أن يجنبني قسوة الدنيا، وفي هذا كان يصنع غفرانه. أنا المسؤولة عمَّا وصلت إليه حياتي. ولطالما كنت مريضة بالحنين مثلي مثل سليم. وكنت أذكر تلك العائلة التي لم تشعرني بالانتماء إليها بين فترة وأخرى، وأسأل سليم عن أبناء عمومتي وعن أحوالهم وفي أي البلدان صاروا.

* * *

ما إن وصلتُ إلى الإمارات حتى أدركت أنني في عالم جديد، وبدا أن الجميع يريد إسداء نصيحة إليَّ. كرهت ذلك. كرهت سؤالهم وإلحاحهم إذا ما كنت أحتاج إلى شيء حتى أتواصل معهم. وبدأت أتنحى جانبًا، بينما كارم كان يَلْمع في اللقاءات كافة. وكنت أشعر بالغبطة من أجله، لم أضع نفسي مرة في مواجهته على الرغم من كوننا شريكين، لكنني كنت أشعر بأن انفصالنا بدأ ينمو ما إن ارتبطنا. وكان ذلك الانفصال رهيف النمو يشعرني بالطمأنينة. لم أكن أريد له أن يعيش آلامي التي صعُب عليَّ تفكيكها. ثم مع إنجابي ليال بدأ ضغط الأمومة يتعبني، وعندما تحررت من ضغط الأمومة القاسي والتفتُّ إلى كارم، كان قد صنع عالمه الذي لم أعد أعرف كثيرًا عنه.

افترقنا لعامين بإنجابي ليال في اللاذقية، وعندما عدت للانضمام إليه بدا أنه يرتاح أكثر في أن تكون له حياته. أدركنا في وقت مبكر من حياتنا معًا أن كلًّا

منا يحب أن تكون له حياته الخاصة. وبعد مناوشات لا تُذكر صار المنزل عالمي كله، بينما كان يذهب للقاء أصدقائه في الخارج وإلى العمل. اعتبرني لا مبالية به، ثم اعتاد أنني أرتاح بالبقاء بعيدة عن الآخرين. على الرغم من محبتي للناس، فإنني كنت أفضِّل البقاء بعيدة عنهم.

لا أقول أو ألمح إلى أن ليال أو كميت هما مَن جمعانا، فعلاقتي بكارم أكثر متانة من الروابط التي قد تجمع الأزواج. لا أقول أيضًا إنني استمررت في حبه، فبمرور الوقت يصير التعبير عن الحب تعبيرًا قليلًا، ويجد البشر أنفسهم يبحثون عن أسباب أخرى لبناء العلاقات أو استمرارها غير الحب، فالحب مفهوم طفولي وحالم، يسكن قلب الأشياء ويبحث عن مشاعر أخرى ليظهر من خلالها. قد مقتُّ ألعاب الحب طويلًا وأردت أن أكون محبوبة من كل قلبي في الوقت نفسه.

لم أواجه نفسي بالأسباب التي دفعت بي إلى البقاء مع كارم. لست من ذلك النوع الذي يستمر في توجيه الأسئلة إلى ذاته. وهذا ما جعلني أبدو مرتاحة في حياتي. أعتقد أن الأمر بسيط. فقط في مرحلة ما يجب أن يتوقف المرء عن مساءلة نفسه، وأن يقصر السعادة على الممكن. وبفضل سليم كنت موهوبة في ذلك. أذكر أفراحي الصغيرة عندما كان يجلسني في حجره، وأمد أصابعي فوق ركبتيه ليضع لي طلاء الأظافر الذي أُحبه. وكان يسمح لي بأن أجلِّد كتبي المدرسية مهما بلغت أخطائي في تنسيق الزوايا، وكنت أختار الملصقات التي أريدها. كما كان يسمح لي أن أختار ثيابه. تفاصيل كانت تفرحني لأنني كنت أرى الأطفال من حولي مُهمَلين ومنسيين، وقد نشأوا في قرى مُهمَلة ومنسية في بلد مُهمَل ومنسي. أشاع سليم دفئه في عالمي، مُرممًا ما استطاع من جروحي التي لم أكن أفهمها حتى إنني لم أكن أخالها جروحًا.

* * *

في مرحلة من زواجي بكارم بدأت أسمع تلميحات من أصدقائه عن مغامراته العاطفية. وكنت أشفق عليه وأراه ضائعًا، لأنه يحبني وينام مع سواي. كما كنت أعتبر نفسي مع العائلة التي صنعتها بمنأى عن التشويه الذي يتعمده البشر في حق بعضهم. عدا عن أنهم كانوا يتحدثون عنه بلغة تمزج المزاح بالجدية، وهذه لغة لا أحترمها، ولا أفهم مقاصد المتحدثين بها. كنت

أوهم نفسي بأن كارم سوف يأتي ويقص عليَّ طيشه. كنت أوهم نفسي بأن ما يجمعنا أكبر من التفاصيل التي عادةً ما تؤرق الأزواج، وكانت تضحكني مفردات تستخدمها صديقاتي مثل «الخيانة»، إذ كان لديَّ اعتقاد بأن على البشر أن يكونوا أحرارًا، هذا ما علمني إياه سليم. لكنه في الوقت نفسه الاعتقاد الذي آلمني، وجعلني أبدو غريبة عن المحيطين بي دائمًا.

كنت أجهد نفسي كي أكون حقيقية وسط بشر متصنعين، وكان يساء فهمي كثيرًا، فالناس معتادون أن يكونوا مخدوعين. أزعم أنه كانت لي القدرة على فهم البشر ومسامحتهم، ولكنني تأخرت حتى صرت أسامح نفسي. كان كارم يعرف آرائي حيال حق الإنسان في أن يكون حرًّا. لذلك كان يعز عليَّ دائمًا أن أصدق أنه وجد نفسه مضطرًّا إلى خداعي، لربما كان يرى أن من حقي البقاء مخدوعة. لكن لم يكن من حقه أن يشيع تلك الخديعة بين أصدقائنا. لم يكن لديَّ ما أقوله أمام تلميحات الأصدقاء. شعرت بأنني ساذجة أكثر من شعوري بأنني أتعرض للخيانة. كنت أظهر بصورة أني غبية وسط أناس يدَّعون الذكاء. الأمر لم يعد يشغلني غير أنه كان مؤلمًا في حينها.

يصنع الأفراد قيمهم بالتجربة، والخيانة لم تكن من القيم التي تهزني. لم يكن نومه مع أخريات أو الافتتان بهن هو ما يهزني، وإنما الخديعة هي التي كانت تقهرني من الداخل. وكارم كان يخدع نفسه بثنائيات أخمِّن أنه حملها معه من بلد استمر في ادعاء عدم الشعور بالانتماء إليه.

أنا نشأت في بلد اسمه سليم، وقد حصنني من المجتمع الذي نشأنا فيه. وعندما خرجت برفقة كارم، وفي كل تجربة كنت أعبرها، كنت أدرك القوة التي منحني إياها سليم في أن أعرِف مكانتي، ولا أسمح للسوء بأن يسكنني. ومنذ طفولتي كان الآخرون يحبون أن يكوِّنوا صداقات معي. كان يظهر عليَّ أنني مرحة ومحبة لهم، لكنني كنت أستخدم اللطف حاجزًا بيني وبينهم. لم أكن مزيفة، غير أنني امتلكت موهبة بأن أدفع الآخرين عني بالقدر الذي كنت أدفعهم إليَّ. وهذا ما صنع جاذبيتي عند الرجال حسب زعم صديقاتي. لم أكن أهتم بأن أبدو مرغوبة بالنسبة إلى أحدهم، وعندما بدأت تصل إليَّ غراميات كارم لم أشعر بأنني فوتُّ على نفسي غراميات من أجله. لم أحقد عليه. شعرت بأنه طفلي. وتأكد لي أنني سأبقى معه امرأة وحيدة.

كانت لديَّ صديقات يجدن في كوني امرأة لا تهاب شعورها بالوحدة ما يصنع جاذبيتي. يوجد صنف من الناس يحسدون المرء على كل ما يمر به لمجرد أنه

لا يشكو. عانيت من صديقاتي، ولم أحسن صنع صداقة واحدة في أثناء إقامتي في الإمارات، فكل شيء كان يمضي على عجلة من أمره، كل شيء طارئ ومؤقت وعابر، البشر والسيارات والأفكار. كل شيء مستهلك ومستنزِف، العلاقات والعمل والصداقات. كان الناس متعِبين ومتطلبين. ولم تكن لديَّ القدرة على احتمالهم. سليم وكارم كانا صديقَي، كلٌّ على طريقته. وكنت أضع ليال وكميت خارج العواطف المألوفة. ربما نجحت في أن أكون أمًّا أقل عاطفية من الأمهات الأخريات. لم أعرف مثالًا للأم. كُتب عليَّ أن أخفف عن الجميع وما من أحد اكترث لأن ينصت إلى مخاوفي العميقة من العيش. أنا أيضًا توقفت لسنوات عن الإنصات إلى مخاوفي. وكان يجب عليَّ التوقف عن التساؤل وتسليم حياتي إلى التيار الذي أخذني في الإمارات، لذلك استطعت تكوين عائلة.

* * *

تزوجت كارم في حفل متواضع أراده في البداية أن يكون في ساحة القرية، وأربكني ذلك. كانت الأعراس مع مطلع الألفية تقام في المطاعم، ووجدت في رغبته شيئًا من المبالغة الكريهة التي يحملها أناس عاشوا في الخارج. لكنني لم أمانع، مع أنني كنت أفضِّل أن يقتصر العرس على أهلنا وعدد من أصدقائنا. وبعد نقاش بين سليم وكارم وصلا إلى اتفاق بأن ندعو أقاربي من الدرجة الثانية، ويكتفي كارم بدعوة أقاربه من الدرجة الأولى. بذلك لا يشعر أهل الشاب بأن ابنهم تزوج فتاة ضعيفة النسب، ليس لديها أحد كي يرقص في عرسها ويفرح من أجلها.

لا أستطيع التخمين إن كان كارم آنذاك فكر في صورتي وسليم وحده يتقدمني في العرس، أو أنه فكر في صورته أمام عائلته. لم أكن أفكر في أبعاد المواقف الصغيرة. كنت طفلة ولا أزال في كنف سليم، وبدافع محبة مؤكدة سمحت للرجلين بترتيب حفل زفافي. ساعدتني عمتي رويدة على اختيار فستان عرسي، ودلتني زوجة عمي كفاح على الكوافير الذي دلتها عليه إحدى معارفها. كما جاء أهل كارم من السعودية ونزلوا في فندق الخيام. وتقرر أن يكون الحفل في صالة على طريق الشاطئ. ذلك لأن سليم أراد أن أُزف في مطعم، ويعرب أيضًا أراد ذلك تجنبًا للحاجة إلى موافقة أمنية قد يطول الحصول عليها لإقامة الزفاف في ساحة القرية. وما ترتب لي أخيرًا هو

اجتماع لفيف الأصدقاء والأهل الذين زفوني إلى كارم في مطعم على طريق الشاطئ. عاد أهله إلى الفندق وغادروا صباحًا إلى دمشق ثم إلى الرياض، وعاد سليم إلى ماخوس.

تجنبتُ التفكير في ليلته تلك، كما أن السرعة التي أُنجز فيها حفل الزفاف جعلتني أشعر بالريبة من الحدث برمته. كنت أعيش في بلد كل شيء فيه صعب ويحتاج إلى كثير من التدابير والتخطيط والموافقات. وطلبت من كارم بعد أيام قضيناها في شاليه في منطقة الشاطئ أن نذهب إلى القرية ونفاجئ سليم. وبوصولنا عرفتُ أنه ليس في المنزل. وكان أهل الدار قد تفرقوا بعد وفاة حنيفة. جلست مع كارم، ننتظر قدوم سليم، على مقعد حجري في ساحة الدار الخالية. تركت رأسي يميل إلى كتفه، وشعرت بدمعة يتيمة تنزل من عيني، لكنني مسحتها قبل أن ينتبه إليها.

منذ فارقتُ سليم غادرت طفولتي، وعرفت أنني أمضي إلى رجل آخر وإلى حياة أخرى. أخبرتُ كارم، ما إن تذكرت أننا في يوم الأحد الأول من الشهر، بأن سليم ذهب إلى اللاذقية كي يجلس مع الصفدي بائع التبغ بالقرب من مديرية الزراعة. وقد جعل سليم من نفسه رهين الطقوس، الأمر الذي أنقذه من الحنين والحزن. كما تأكد لكارم عندما رأى سليم يدخل ساحة الدار حاملًا كيس التبغ المصفر بين كفي يديه وعلى وجهه ابتسامته المعتادة، أنه تزوج فتاة لن تقوى على التحرر من حياتها القديمة بسهولة. وفي الوقت ذاته تأكد لي أن سليم سوف يتعاطى مع غيابي بالصبر الذي لطالما أثار الآخرين حياله.

نهضتُ عندما رأيته يدخل ساحة الدار متوجهًا إلينا، ونهض كارم معي. بدا أننا منسجمان. وتوجهنا صوبه بخطوات واحدة، ثم عندما ضمَّنا إليه بدا أنه يضم جسدًا واحدًا إليه، وبدا مطمئنًّا عليَّ. وبعد أسبوع سافرنا وتركنا اللاذقية. وقد أمضيت ذلك الأسبوع وأنا أتجنب التفكير في سليم على نحو سلبي. وما إن وصلتُ البلد الذي سوف يأكل من حياتي ثمانية عشر عامًا، حتى بدا لي ألا مناص من أن أترك الزمن يأخذني حيث يشاء.

منذ اعترفتُ لنسرين بأنني أخرج مع امرأة غيرها وحياتي تتهاوى ببطء، كنت أعيش في قلب زلزال بينما بدت غير مبالية بي. وقد عرفتُ ذلك النوع من الحب الذي يخسر المرء في سبيله كل شيء وفي النهاية يخسره.

كان قد مضى على عودة نسرين من سورية عدة أسابيع عندما اتضح لي أن تغيرًا أصابها نحوي أنا من دون الطفلين. عند وصولها كنت أعتقد أن مرض والدها هو ما غيَّرها، ولربما أقلق الحزن عالمها الداخلي، فاقتراب الموت من الآباء يجعلنا ندرك أننا نكبر أيضًا. لكن مع استمرار حالها النكد معي بدأتُ أشك في أسباب تغيرها، الذي لم أعِ عمقه إلى أن خرج عن سيطرتي. إنني أتذكرها وكأنها إنسان من الماضي، ولم أستطع أن أجنِّب الحكاية قدرة الزمن على تخفيف ثقل العاطفة التي جمعتني بها.

ما إن عادت نسرين من نقاهتها الطويلة مع والدها حتى بدأتْ تنظر نحوي كأنها تبحث عن سبب لمشكلة بأي طريقة، كأنها تدينني، كما أرهقتني نظرات الإدانة. لم أكن معتادًا عليها لئيمة إلى الحد الذي يصعب فيه بدء حديث معها. وكان يبدو لي أنها تنتظر مني إخبارها لماذا تحولنا إلى عدوَّين. ولا أعرف ما الذي جعلها تفترض وجود الإجابة لديَّ. لربما أرادت أن أبدي رأيي فيما وصلنا إليه، إذ كنت أبدو غير آبه بمنزلي، وكان يبدو لمن يراقبنا أن العمل يشغل حياتي كلها. ولم يكن ذلك صحيحًا، بل كنت أنشغل في العمل عن شكل حياتنا المُحبِط، وكان ذلك من حقي. وكي أتجنب ألم التفكير في الفشل كنت أجري وراء النجاح في العمل. إلى جانب أن ترتيب الأولويات في مدينة مثل دبي بين العائلة والعمل أمر شاق.

أمام نظرات نسرين وتعاملها معي شعرت بضرورة مصارحتها، مع أنني لم أكن أملك جوابًا محددًا عن أسئلتها. ولا أعرف لماذا فكرتُ آنذاك أن الصدق منجاة، لربما كان منجاة في مرحلة سابقة، أما بعد أن أصبحت مكشوفًا أمامها فكل ما أقوله صار يُستخدم ضدي. ولا أعرف لماذا بدوت مهتمًّا بأن أدين نفسي، كما لم يكن للحديث عن علاقة أخرى في حياتي أي معنى سوى أنني جرَّدتُ نسرين من حقها في أن تكون مخدوعة، وقد بدت مصارحتي لها نوعًا من العدوانية غير المبررة. لكن لم أكن أود لها أن تلعب دور الضحية أو أن تعيش في الخديعة، فأنا لا أحترم الضحايا ولا المخدوعين. وهكذا بدأت

معها أهدم ما بنيناه، رغبت في مصارحتها. وخلتُ أنا الرجل العادي أنها امرأة استثنائية.

لم أخبر نسرين عن الطريقة التي تعرفت بها على غريمتها، وهي لم تسألني إن كانت المرة الأولى التي أعرف فيها غيرها. حتى إنني لم أخبرها في ذلك الصباح الذي صار بعيدًا بأنني أحب فتاتي العابرة، وبأنها لا تعجبني فقط في السرير، وإنما كل ما فيها كان يأخذني إليها، وعندما رأيتها شعرت بذلك الإحساس القوي بأنني قد أفوِّت حب حياتي لو لم أتعرف إليها، وهذا إحساس عرفته مرات عديدة. لكن مع خسارتي لنسرين أدركتُ كم كان إحساسي كاذبًا ومؤقتًا.

بدأت نسرين تتحاشى الجلوس معي وتتعفف عن مخاطبتي. وبدأت ليال تشعر بالمسافة التي تزداد بين والديها. كنا صوتَين معزولين ووحيدين. تفككنا مثلما تتفكك العناصر في العراء. وكشفت لي الخسارة أنني أصلح لأن أكون شاعرًا، لكن حياتي مضت في اتجاه مختلف. وقد جعلتني الخسارة أُخرج ما كان مكتومًا في داخلي، إذ لم أعد أشعر بوجود ما يستحق تأجيل التعبير عن الشعور.

كنت أرمي بليال إلى نسرين لتعيدها إليَّ بطلبات وخطابات. كنا نتصرف مثل الأولاد، وكنت أخبر ليال بأنها كرتنا الطائرة، ما أضحكها في البداية. حاولتُ ما بوسعي كي أشعرها بأننا نلعب معها، غير أنها ألعاب الحياة القاسية التي لا يمكن تجنب مرارتها. وهكذا بعد أسابيع ضاقت ليال ذرعًا بنا وكان عليَّ التصرف، فصرت أمضي يومًا أو يومين خارج المنزل، ولم تبدِ نسرين اعتراضًا، ثم بدأت أمضي أيامًا أطول خارج المنزل. وبدا خروجي مريحًا بالنسبة إليها. غير أن كميت بدأ يشكو بسبب غيابي.

كانت الأمور تسير بنا إلى الانفصال بصورة تلقائية، وكانت نسرين تشعرني بأنها ترفض الحديث معي. كما بدأ يداخلني شعور بسبب سلوكها بأنني سبب العداء الذي نما بيننا في لحظة لا أدركها. كان الزمن يسيل بيننا ويأخذنا معه إلى مناطق نجهلها.

كنا مستلَبَين. حتى الحلول التي أقنعت نفسي بها خارج العائلة لم أكن سعيدًا بوجودها. شعرت بأن دور السعادة لم يعد يناسبني، أو ربما كنت توقفت كليًّا عن إيهام نفسي بأنني ناجح وسعيد. وبدأ الاعتراف بالفشل يشعرني بالراحة.

* * *

صارت بداية تعارفي أنا ونسرين حدثًا بعيدًا في ذاكرتي، عندما كنت أحدِّث الآخرين أينما جلست عن نسرين وقد أردت أن يعرف الجميع أنني مغرم بها. كما أن الأسابيع التي أمضيتها وأنا ألحق بها وأتتبع أخبارها كانت من أجمل أيام حياتي. كنت شابًّا عاشقًا وهذا أجمل ما يحدث مع المرء. أمضينا عامين في اللاذقية وكانت العاطفة ملتهبة بيننا. لم يكد أي منا يشعر بوجوده سوى عبر الآخر. كنت أحبها وكانت تحبني. وكنا فرحين. كان المهم بالنسبة إليَّ أن تبقى نسرين سعيدة حتى لو على حسابي. كذلك كانت تفكر هي. كل المحبين يراكمون المشاعر السلبية في داخلهم قبل أن يرحلوا فجأة. لقد كنا نزرع اللغم في داخلنا ثم انفجر بعد سنوات طويلة. تبدو الكلمات عادية حين أحكيها لكنني متألم لما حدث.

كانت نسرين فاتنتي، وكنت من دون أدنى مقاومة منجذبًا إليها. أينما مشت كانت تجدني، وأينما جلست في الجامعة وتلفتت حولها كانت تجدني. أعرف اليوم أن الغواية أكثر متعة من الحب، والغموض أكثر لذة من الانكشاف. لكن ذلك زمان مضى. وجاءت أيام بدلًا من الحديث عن نسرين، كما لو أن الجميع يجب أن يعرفها، بتُّ أتحدث عن آلامي وحزني، وعن مشكلات الارتباط وضغوط الحياة، وصعوبة مشاركة الآخرين تفاصيلهم والعيش معهم طوال الوقت. ووراء هذه الأحاديث كنت أخبئ وجعي الخاص، أخبئ نسرين والخيبة من الحب التي رماها كل منا في وجه الآخر.

جاءت أيام كنت أظن أن التواصل مع أحد من أصدقائنا القدامى أكثر ما أحتاج إليه. ولم أعد أتواصل مع أحد منهم ولا أعرف أين أخذتهم الحياة. قلة مَن يعرفون الشهور الأولى لقصتنا، ولا أحد من أهلي كان يعرف بداية حكايتي مع نسرين. وأردت أن أحكي لأحد يعرفني ويعرفها، لكن لمَن كنت سأحكي؟

كنت أحتاج إلى أن أسأل إن كان الحب يتحول ببساطة هكذا؟ وما من أحد أسأله إن كان العالم السعيد الذي كنت مفتونًا به عالمًا حقيقيًّا. عندما يدخل الشركاء معركة الانفصال يطال الشك كل شيء. كنت أريد أن أسأل أحدًا إن كان يذكر شيئًا من أحاديثي عن نسرين. أنا نسيت. وما بقي في ذاكرتي يكفي فقط لأرويه عن علاقة عادية ذات نشأة غامضة في صباح يوم وفاة الرئيس.

كنت سعيدًا برفقتها، وكنت ممتنًّا لها لأنها تحدثت إليَّ. كنت ممتنًّا لضحكاتها التي شجعتني على التحدث معها وانتظارها ومرافقتها. كنت ممتنًّا لرقتها التي

قيدتني ولوداعتها التي أسرتني. أما لو أردت الحديث عنها عقب حياتنا فكنت لأتحدث عن امرأة أعيش تعيسًا معها. لذلك كنت أتحدث فقط عن صعوبة الحياة بشكل عام، وبقيتُ متعلقًا بتلك الصورة القديمة في ذاكرتي. الصورة التي لا تزال تبهرني للفتاة ذات التسريحة الفرنسية وهي تنظر إلى عينَي مباشرةً، حتى إنها نظرت داخل عينَي بعد خمسة أسابيع من مراقبتها.

كنت أتحدث عن نسرين أمام فتاتي العابرة، وكثيرًا ما كنت أعبِّر عن الفتاة التي أشاركها السرير أو العاطفة بأنها عابرة. وجعلهن ذلك التعبير في مخيلتي امرأة متعددة استخدمتها للتعويض عن امرأة واحدة هي نسرين. فعندما كنت أثمل وينطفئ وعيي بما يحيط بي كنت أتحدث عن نسرين، التي تعاود الخروج من ذاكرتي كي تخبرني بصعوبة نسيانها. وكانت الفتاة التي أخرج معها في تلك الآونة ترأف بي. كما لم تكن تجهل الحياة، بل كانت لديها تجربة طويلة مع الألم، حبيب غائب أو شقيق مقتول لم أعد أذكر بالضبط مأساتها، وأظنها معلومة نافلة في حكايتي. لكنني أدرك أن الناس الذين يعرفون الألم ساحرون، ويستطيع المرء أن يلجأ إليهم في أي وقت.

كانت الفتاة العابرة تبرر لي هيامي بصورة قديمة لامرأة غيرها. فالبشر يرتبطون بصور يحفظونها للآخرين في ذاكرتهم على نحو أشد مما تجمعهم الوقائع. وفي النهاية تدرك الفتاة العابرة ألا حقيقة تجمع المحبَّين مثلما يجمعهما الجسد. لم أحمل يومًا مفهومًا آخر عن العلاقة بين المحبين. لكنني لا أنكر أن مفهومي المادي للشريك العاطفي لم يكن واضحًا بالنسبة إليَّ في البداية. ربما يستغرق المرء سنوات من عمره حتى يكتشف جانبه العاطفي ويفهم جسده. وهذا ما فعلتُه، منحت نفسي الوقت حتى أفهم نفسي.

عندما كنا نعيش في الشارقة كنت أعمل في دبي، ونسرين كانت تبقى في المنزل تنتظر عودتي. لم يكن لديها شيء آخر لتقوم به. وبدأت أسعى من أجل أن أحصل لها على عمل، غير أنه لم يكن سعيًا جديًّا، إذ كنت ألمس لديها قلقًا من الاستقرار في الإمارات، ورغبة في العودة. الأمر الذي كان يبدو واضحًا في عدم تفاعلها مع الأصدقاء الذين كنا نلتقي بهم. أما عن شؤوننا الحميمة فقد بدأت نسرين سريعًا تنكر الرغبة، حتى إنني بدأت أشعر بأنها كانت تمقت جسدها.

كانت نسرين تسارع إلى ارتداء ثيابها بعد أن نتبادل الحب، ولم يكن يطربها أن أحدِّثها عن مفاتنها بلغتي البذيئة المباشرة التي كانت تثير قرفها. مرة

صارت تبكي بهدوء ورِقة بينما كنت فوقها سعيدًا ومنتشيًا. ولربما عند هذه الحادثة بدأ الفراق بيننا. كنت أحبها، وأشعر بما يدور في داخلها من غير أن أفهمه. كانت نسرين تقدِّر مسؤولياتها تجاهي، وبدأ يعذبها في الشهور الأولى أنها امرأة باردة، لا من أجلها، وإنما كان عذابًا مبذولًا من أجل الحب. وسببه الشعور بالواجب الذي لا أعرف كيف أحاطت نفسها به. وقد ألزمت نفسها بصورة قهرية بالنجاح في علاقتنا، الأمر الذي حطمها.

كانت تفعل كل ما بوسعها من أجل أن تقاوم كآبتها، غير أن ما يندرج تحت إشباع الرغبة كان يشعرها بالعجز. وهذا ما جعلني أعفيها من شعورها بالواجب نحوي. لشدة حبي لصورتها المتألقة قررتُ أن أبتعد عنها في اللحظات التي كنت أحتاج إليها وإلى جسدها. ومن غير أن أسألها قررت ذلك. ربما أخطأت في تقدير ما يجب عليَّ فعله، لكنني أعذر نفسي، فأنا لم أكن أريدها أن تخرب علاقتها مع جسدها بأن تمنحه من غير رغبة منها. أيضًا كنت أحترم نفسي آنذاك، ولم أكن أحب أن أكون مع شخص لا يريدني. ربما كان عليَّ أن أحاول تغيير شيء في حياتنا. وفي تلك السنوات الشاقة كنت غارقًا في تأسيس عالمنا. وكنت أعرف من غير أن أستشير أحدًا أن الرغبة في جسد الآخر متى ما انطفأت لا تعود إلا بالتحرر منه، وهذا ما لم أكن قادرًا على المغامرة به، فأنا أحببت نسرين لسنوات. وهكذا أدركتُ باكرًا ألا مناص من تجريب الألم. ثم وبشكل مفاجئ أخبرتني نسرين أننا ننتظر مولودًا، ومن غير توقُّع تغيرت حياتي، وأصبحتُ أبعد الأفكار الأنانية عن تفكيري. أخبرتني نسرين بحملها من غير أن تظهر السعادة على وجهها. كان الأمر يربكها. لكن كيف لي أن أحزر تلك المسألة الخاصة في ذلك الوقت وكنت لا أزال شابًّا من غير تجربة.

* * *

في الأشهر الأولى من إقامتها معي كانت نسرين تقضي ساعات النهار في انتظار عودتي، وبعد الأسابيع الأولى أصبحت أشعر باكتئابها. طلبتُ منها أن تخرج من جو المنزل وتسجل في معهد للكمبيوتر. وتقبلت الفكرة، لكنها توقفت عن الذهاب بعد مرة أو مرتين، أرادت مني أن أوصلها وأعيدها إلى المنزل. لم يكن ذلك منطقيًّا. هناك كثير من الصعوبات التي واجهها كلٌّ بمفرده. كانت فترة صعبة على كلينا، العمل يأخذ وقتي، والفراغ يأكل وقتها

الذي ملأته بقراءة الروايات الرومانسية. وصارت تغيِّر ترتيب الأثاث مرتين في الأسبوع من غير مبالغة. أحيانًا أفكر أنها فكرت في الإنجاب بالطريقة نفسها التي كانت تفكر بها في تغيير الديكور، وقد أرادت أن تفعل شيئًا ينقذها من التعاسة. لربما أبدو قاسيًا، لكن هذه هي الحقائق كما أصبحت أراها.

كانت تقرأ الصحف الإماراتية وتبحث في مواقع الإنترنت عما لا تعرف. وعرفتُ من تجارب أهلي في السعودية وزوجات أصدقائي أن هذا المجهول الذي كانت تبحث عنه هو حاجتها إلى ملء وقتها والخروج من المنزل. كانت تريد التخلُّص من وحدتها خلف الجدران، لكن الوحدة تملأ الخارج كله أيضًا. وعوضًا عن مواجهة الأمر بتطوير شخصيتها قررت الإنجاب والبقاء في عالمها الضيق. كان الإنجاب قرارها، غير أنني مَن صرت أبًا، وتغيَّر منظور الحياة بالنسبة إليَّ.

لم تطُل حال نسرين هذه، فبعد أن عرفنا بحملها قررتْ على نحو مفاجئ العودة إلى اللاذقية. كان لهذا القرار مسوِّغاته خصوصًا مع انشغالي الدائم، لكنه آلمني. شعرت بأنها تتخلى عني. وآلمني أن أبني المستقبل مع سيدة ليست إلى جواري. كنت أرغب في أن تبقى معي بعدما اعتدتها تنتظرني في المساء لأخبرها عن يومي ومشاغلي. غير أنها عندما اقترحتْ أن ترجع إلى اللاذقية كان في عينيها رجاء بالموافقة، فوافقتُ من فوري على سفرها الذي ترك أشجانًا لديَّ. وبدأت أشعر بالوحشة عندما أعود كل ليلة على الطريق السريع من دبي إلى الشارقة وأنا أعرف أن نسرين لن تكون في المنزل. لم أكن أملك أن أمنع عودتها إلى اللاذقية، مع تقديري لحال امرأة تنتظر عودة زوجها طوال اليوم كي يحدثها عن العالم في الخارج، وتنتظر مرور أيام الأسبوع كي تخرج في مشوار أسبوعي. مع أنها لم تَشكُ سوء مزاجها لي خلال الأشهر التي أمضتها في المنزل. كانت من النساء اللواتي يذكِّرن الرجل بوالدته، وهذا أمر لم أصارحها به نهائيًّا. كانت هانئة إلى درجة كان يبدو لي أن نقاء سريرتها يخفي داخله كل الانفعالات التي للإنسان أن يختبرها. وهذا ما تأكد لي لاحقًا. ولم أستطع بسهولة أن أتحرر من شعوري بالذنب تجاهها.

أعتقد أن في داخل الإنسان يوجد كل شيء. والآخر يضيء من الإنسان جوانب ويغفل عن أخرى، بل يضيء تحديدًا الجوانب التي تشبهه. بلغت نسرين من نقاء السريرة درجة كنت أعرف فيها أن الشكل الذي باتت عليه حياتنا كان من صنعي. كانت وحدتها مرآة لوحدتي. كنا وجهين متقابلين في

مرآة، وأزعم أنني الوجه الذي تعكسه المرآة. فقد كانت حياتي انعكاسًا لتصوراتها. أزعم أنني أحببتها أشد الحب، وكان أسهل عليها أن تتحرر من وجودي. وما لبث الامتنان الذي كانت نسرين تشعر به وأنا معها في المنزل أن تحول إلى ضيق من ساعات العمل الطويلة.

كانت تملأ وقتها بالعمل في المنزل؛ تجلي الصحون، وتنظف المنزل أكثر من مرة، وتحضر وجبات طعام تتطلب جهدًا. كانت تحاول أن تجعل من يومها شاقًّا وأن تزيد من صعوبات حياتها. وما إن يأتي المساء حتى تصبح خائرة القوى. أرادت أن تحكم على ذاتها بأن تعيش في حلقات مجهدة من التعب، وكانت هذه طريقتها في العيش منذ البداية.

أعتقد أن نسرين كانت تعاني نزعةً إلى تدمير ذاتها، ولربما رغبتْ في إنهاء وجودها في هذا العالم. كانت حياتها تسير على المَحكِّ دومًا. وبعد سنوات طويلة من العيش برفقتي، وعندما عرفنا عن الورم الذي في صدرها، حدستُ أنها أصابت نفسها بالسرطان أخيرًا. لكن هذا لم يحدث، والورم كان حميدًا. غير أنني لمستُ لديها نوعًا من الإحباط عندما طمأننا الطبيب على حالها. لم تكن نسرين تأبه لحياتها إلا أن الطبيعة وقفت إلى جانبي، وأرادت لها أن تستمر في رفقتي. لو كان الأمر عائدًا إليها وحدها لقتلت نفسها بطريقة ما. لكن لسنا مَن نحدد حياتنا، بل منطق الحياة هو ما يرسم مصيرنا.

كنت أتأمل الجسد الجميل المتعب لساعات طويلة خلال الليل، وأتذكرها غارقة في متاهات أليمة من العذاب. وكنت أقترح عليها أن تزور سورية فتشعرني بأن الأمر غير مستعجل، وبأنها تتواصل مع سليم الذي لم أسمعها تقول عنه «بابا» ولو مرة واحدة. وكانت لنسرين تلك العادة بأن تنادي الناس حسب شعورها الداخلي إزاءهم. في مرحلة ما كنت حبيبها، وكنت كارم، وكنت بالنسبة إليها زوجها. لكن لم أكن بالنسبة إليها أبو كميت. وقد فصلنا علاقتنا عن ليال وكميت، ولا أعرف إن كنا محقين في ذلك. غير أنني أزعم أن هذا ما جنَّب الطفلين جزءًا كبيرًا من الدراما التي كنا نشهدها داخلنا.

* * *

كانت نسرين تريد بصدق أن تبدأ بداية جديدة، وتريد بصدق أن تركز أفكارها في حياتنا. وكانت تنازعها رغبتان؛ أن تبقى إلى جانبي في الإمارات، وأن تعود إلى سورية. أذكرها متحمسة للسفر ثم غارقة في نوبات الاكتئاب والحنين.

أبسط الأحداث التي كانت تجري معها كانت قادرة على زعزعة العالم الداخلي لتلك الطفلة. كانت متخوفة من العمل، وحماسها لفكرة البحث عن عمل في البدايات انقلب بعد فترات قصيرة إلى ألم واكتئاب. بدأتُ سريعًا أعجز عن فهمها، وسرعان ما بدأت أتعرف إلى واحدة غير تلك الـ«نسرين» التي أحببتها. نسرين التي قررت أن تنجب ليال، أرادت أن تخطو خطوة في اتجاهي. لكن ما حدث كان العكس. ربما أرادت أن تمنحني فرصة أن أكون أبًا، لربما بذلك كانت تنهي فرصة أن نبقى عاشقَين، فالأمر كان يرهقها.

استغرقتُ جزءًا من حياتي حتى استطعتُ فهم نسرين، رهانها بألا تفشل منعَها عن مفارقتي. وبقيتْ تعيش تحت وطأة خرابها الذاتي. ربما كانت تتخيل حياتها في مكان آخر مع بشر آخرين، وفي حال مختلفة عما مضت إليه. وكانت لديها نزعة شديدة إلى المسؤولية، النزعة التي ظهرت بعد زواجنا بحسب ما ألمح سليم في زيارتي لهم بعد ولادتها ليال بعدة أشهر. كان الرجل قد اكتشف التغيرات التي طرأت على ابنته، واكتشف المخاوف التي بدأت تحكم الطباق عليها. ولم أكن لأعي عمق تلك التغيرات حتى بعد الأحاديث الطويلة التي خضتها معه. أعباء الزواج إلى جانب حبها الكبير لي منعاها من التصرف بأنانية والرحيل عني. الأمر الذي شكَّل حاجزًا بيننا لم تكن تريدني معه أن أنقذها، كما بدأتْ تعتبر أنني السبب في الثقل الذي كانت تشعر به في ارتباطنا. في جميع الأحوال كنت أشك في أنني أهل لإنقاذها، فالعمل كان يستنزف طاقتي كلها.

كانت دبي مدينة المستقبل، تنمو وتبهر العالم يومًا بعد آخر. وكنت أحب أنني جزء من نجاح يدوِّخ المخيلة؛ مشاريع جديدة، عمارات وأبراج وأنفاق وكراجات طابقية. ولم تكن لديَّ القدرة على أن أمد يدي لنسرين، كنت أراقبها تغرق وحسب، من غير أن أعرف مدى تقلباتها النفسية التي رافقت غربتها وزواجها. وكان لديَّ رأي آنذاك وهو أن أوافق على ما تراه مناسبًا. ومع الوقت وبينما هي تتحكم بمسارات حياتنا مثل الإنجاب والعمل، وجدتُ أنني قد سمحت لها بأن ترسم حياتي. إن لم يكن ذلك هو الحب بعينه فأنا أجهل ما هي العاطفة برمتها. استمرت نسرين في البحث عن الحلول التي تتلخص في التقدم خطوة بعد خطوة في فخ التضحية.

وهكذا وجدتُ نفسي أبًا لطفلين لم أكن أفكر في أن يكون لي أي منهما، حتى إنهما صارا مع الوقت مسؤوليتي وحدي.

منذ زمن تحررت من العاطفة التي أثقلت حياتي طويلًا. لكن تداخلت السنوات في رأسي، ولا أرى ترتُّب الأحداث التي عشتها أو ألمَّت بي حدثًا تلو الآخر أمرًا ذا شأن. ما حدث قد حدث. وليس لي أن أعيد عجلة الحاضر إلى الماضي حتى لو بدا أنني أعيش في الماضي، فأنا أعيش في ماضيَّ الخاص، وهذا أمر يعنيني وحدي. لم أفرض خياراتي الجديدة على أحد. وكنت أحتاج إلى أن أرحم نفسي وأخفف عنها.

عندما مكثتُ إلى جوار سليم بدأتُ أشعر بوجود شيء يضغط على صدري طوال الوقت، لم يكن مرضه ولا ابتعادي عن طفلَيَّ، ولا مكالمات كارم الهاتفية. شيء أعمق كان يخرب عليَّ حياتي ولم أكن أستطيع تحديده. فأنا أجهل نفسي، ولا أعرف حدودها. شعرتُ بأنني مُقيَّدة، وكنت أفتقد الحرية افتقادًا عميقًا. أحيانًا بدا لي صحيحًا ما زرعه كارم في رأسي بأنني معقدة ولا أعرف ماذا أريد.

بدأتُ أدرك أنني عشت حياتي من دون أن تكون لديَّ قناعات أدافع عنها، وعرفتُ أن هذا هو الشأن الطبيعي للبشر المتصالحين مع ذواتهم. لكنني كنت محاطة بأشخاص يشعرونني بالقصور بسبب عدم امتلاكي ما أدافع عنه. كنت أتجنب السجالات غير المجدية والتعبيرات المفرطة عن العاطفة. كثيرًا ما تحاشيت الناس في اللقاءات التي كان كارم يدفعني إليها، قبل أن أتوقف عن مجاملته وأعرف ما أودُّ أن أدافع عنه. كما أدركتُ أن البشر يمتلكون بالتجربة ما لا يستطيعون التخلي عنه. وبالنسبة إليَّ كان سلام عالمي الداخلي هو ما لم أكن قادرة على التخلي عنه؛ ما جعلني أبدو غريبة عمن يحيطون بي. لم أكن أخرج من المنزل إلا برفقة كارم كثير الأشغال. وعندما تقدمتْ شهور الحمل وجدتُ من المناسب لي أن ألد في اللاذقية عند أهلي، وسافرتُ إلى سورية قبل موعد الولادة بأشهر، حتى إن سليم سألني إن كنت مرتاحة في حياتي.

وبكيتُ من كل قلبي.

لم أكن أمتلك إجابة. كما لم أقل كلمة واحدة أشتكي بها من نمط حياتي محبوسةً بين أربعة جدران. وكل محاولة للخروج والتآلف مع الآخرين كانت تعيدني إلى الجدران الأربعة، وتقيدني إلى رجل غائب ومشغول. مجرد البكاء

أمام سليم جعلني بحال أفضل، وشعرتُ فجأة بأنني تخلصت من ثقل رهيب. لم أكن أعي أنني نقلتُ ذلك الثقل إليه، وصارت كلماتي لطمأنته بأنني مرتاحة تثير نشيجًا مكتومًا يأبى أن يخرج. مضت شهور الحمل ونحن نتجنب الكلام في شؤون حياتي، وبعد الولادة صار وجود ليال بالنسبة إليَّ وإلى سليم، ولاحقًا بالنسبة إليَّ وإلى كارم، فرصة كي نتجاهل ذلك الثقل الذي بات متبادلًا بيني وبينهما. أراد سليم أن يحميني من الضيق وأردتُ أن أحميه من العجز. واستخدمتُ ليال كثيرًا كي أصنع مسافة بيني وبين الآخرين.

حتى الآباء يعجزون في مرحلة ما عن حماية أبنائهم، ولمتُ نفسي على بكائي الفارغ أمام سليم. عندما جاء كارم في زيارة إلى اللاذقية بعد الولادة بأشهر، فظروف العمل لم تتِح له أن يكون إلى جانبي أو أن يحضر في وقت أبكر، اعتقدتُ أني غفرتُ له هذا فظروفنا كانت صعبة فعلًا. كما شعرتُ بأن المهم بالنسبة إليَّ هو نجاحنا في تكوين عائلة. شعرتُ بأن كارم مشتاق إليَّ، غير أن علاقتنا عاشت على تلك الحواف الحادة، التي يبدو معها أن كل شيء سيصبح على ما يرام بالقدر ذاته الذي يبدو به كل شيء قابلًا للانهيار. لكن أحاديث بشأني جمعته مع سليم، ليس في حقل الخوخ، فكانا يتمشيان في أمكنة عديدة. وأود الافتراض أن الحديث الذي يخصني جرى تحت شجرة العذر في حقل القمح. وشعرت بسبب عدم إصرار كارم على عودتي معه إلى الإمارات بأنني قد جرحته بلجوئي إلى رجل غيره. كان كارم حساسًا فيما يخص شؤوننا، وأشفقتُ على سليم أيما شفقة. حطمني عجزه عن فعل شيء من أجلي سوى الشكوى إلى زوجي. وربما كان كارم محقًّا في استغراب وجود مشكلة بيننا، لأنني لم أكن واضحة أمامه. غير أنني تغيرت، وساعدني وضوحي مع نفسي أن أكون أوضح مع الآخرين.

عندما عدتُ مع ليال للعيش معه في الإمارات، وجدتُ أنه قد تحول إلى شخص لا أعرفه. وكثيرًا ما يستخدم الزوجان كلمات مثل التحول عندما تسوء العلاقة بينهما. أدرك بعد مُضي الزمن أن كارم لم يتحول، فقط كنا محبطَين من حياتنا المشتركة. وقد أخذ كارم عليَّ أن لجوئي إلى سليم هو لجوء منه، وشكك في أمر سفري برمته من أجل أن أنجب في سورية. وحاولت كثيرًا التوضيح له أن وجود رويدة إلى جانبي خفف عليَّ صعوبة أن أكون أمًّا. كما أوضحتُ لكارم أنني كنت متعبة فقط، وسليم من افترض وجود مشكلة في منزلي. ثم أخبرته بما كان يجرحني فعلًا، وهو أنني نشأت من غير أم. ولكم

أذكر حوارنا حين قلت له:

ـ أنت تنسى أنني نشأتُ من غير أم.

قلتها وأنا أغالب الدموع، بينما أعقب بلا مبالاة:

ـ لكن كلنا نستمر في العيش من غير أم في النهاية. ماذا يعني هذا؟

وكم كان شاقًّا عليَّ أن أشرح له كيف تبدو المسألة في داخلي، أو أن أستمر في الحديث معه، مثلما كان شاقًّا ذلك الاعتراف الذي دفعني إليه! على الرغم من معرفته بأن أمي تركتني يوم ولادتي، فإنه لم يولِ هذه الحقيقة أي اهتمام. حتى بعد أن اعترفتُ له أغالب البكاء، لم يعطِ كلماتي عن نشأتي من غير أم أي أهمية. وقد شعرت بأنه يجبرني على أن أنزع ثيابي، ومقتُّه للمرة الأولى، في حين كان عليَّ إخباره بصورة أوضح عما دفعني إلى التفكير في العودة، وهو غيابه عني وانشغاله الدائم مع أصدقاء مَقيتين كان يدفعني إلى احتمالهم بحجج مختلفة. كانت حياته مليئة بحسابات النجاح والعمل، أما أنا فكل ما كان يشغلني أن يكون مرتاحًا في حياته. وأعرف أنني أخطأت.

جعلني كلٌّ من سليم وكارم، رجلَي حياتي، أدرك أنني لم أعد أرغب في اللجوء إلى أحد الرجلين اللذين كنت أعرفهما في الدنيا. وأدركتُ ضرورة بدء معركتي الخاصة ومعرفة ما ينبغي لي الدفاع عنه، وكي أصون عالمي الداخلي من الضغائن والكراهية كان عليَّ خوض معارك كثيرة مع نساء أخريات، ومع كارم الذي لم يتوقف عن القول إنني أتحول إلى امرأة عدوانية.

* * *

أحد المواقف التي حدثت في تلك الفترة من حياتنا وأثرت بي، عندما حاول أن يتودد إليَّ بعودته باكرًا من العمل على غير العادة. ليال كانت نائمة أيضًا في وقت غير معتاد، وبدا كل شيء مرتبًا لقضاء وقت حميم معًا. شعرت بأنه يريد مني ذلك الأمر الذي كان يشق عليَّ في أوقات كثيرة أداؤه، خصوصًا أن كارم كان رجلًا حساسًا معي، وكان يريد أن أشعره برغبتي فيه. وذلك كان متعذرًا عليَّ. اقترب مني ولمس جسدي، حتى إنه ضغط على صدري وقبَّل رقبتي. لكنني كنت متعبة، وأشغل نفسي بالاعتناء بالزهور التي وضعتها في النافذة، وكانت من نوع فم السمكة، أحضرتها من اللاذقية كي تخلق روحًا خاصة بي في دبي التي لا أنكر أنني أحببتها من غير أن أشعر بالانتماء إليها.

لكنني لم أستطع أن أتقبَّل تقرب كارم المفاجئ مني وتحرشه بي. كما شعرت بأنني جرحته بتمنُّعي عنه، واقترح أن أخرج برفقته كي نلتقي بأصدقائنا بعد أن صددته، وأيضًا لا أعرف لماذا امتنعت عن الخروج، وأخبرته ببرود:

ـ لستُ في المُود.

ثم جاوبني باستياء بادٍ عليه:

ـ ومتى كنتِ في المُود؟

ـ أنتَ تبحث عن مشكلة معي؟ اخرج مع أصدقائك واتركني كما العادة.

لم أجد ما أدافع به عن نفسي سوى لومه بكلمات غير مباشرة.

ـ أوكي. هذه هي العادة. صحيح.

وخرج فعلًا، وتركني فعلًا، وكان أمرًا معتادًا بيننا فعلًا، لكن بعد وقت وصلت إليَّ رسالة يطلب مني فيها ألا أنام في الغرفة. وفعلتُ ما طلبه مني، نمت إلى جوار ليال في تلك الليلة. وحتى عندما عاد واعتذر مني وطلب أن أسامحه، لم أستطع أن أنسى موقفه العدائي. بل وعلى عكس ما كان مخططًا له، بدأ ابتعادي عن كارم يزداد مع وجود ليال التي بدأت تشغلني داخل المنزل. وفي الخارج كان أصدقاؤه بمعظمهم عزابًا، وكلما جلستُ مع أي منهم بقي تفكيري مشغولًا مع ليال. بدأت أفقد قدرتي على الانسجام مع أحاديثهم. كما لم أحب أن تكون ابنتي موضوعًا ألجأ إليه لأختلق حديثًا بإخبارهم عن آخر حركاتها، مع أن الناس عادةً ما ينتظرون ذلك من الأم الجديدة.

كان ينمو في داخلي إحساس مقيت بأنهم يريدون لابنتي أن تكون حديثًا بالنسبة إليهم، وبدأ كارم يعتبرني عدوانية، ويستغرب لِمَ آخذ الحياة على محمل الجد. غير أنه لم يشعرني بأنه يفهم مخاوفي. لم أكن عدوانية، كنت ودودًا مع الآخرين، لكنني كنت حساسة تجاه مسائل الخصوصية. وتحول كارم إلى ذلك الشخص المشغول بالأعمال ويحركه هوس شديد بالنجاح. وبات الفرق بيننا يتضح على نحو لم أقوَ على تجاهله. كذلك نما في داخلي شعور بالزهد من جراء فشلي في التأقلم معه مجددًا، وأدركتُ أننا عندما نهمل الدنيا فالدنيا تهملنا وينسانا الجميع.

* * *

لم يتغير شيء جوهري في حياتي بعد إنجاب ليال، وعوضًا عن أن أنتظر كارم في منزلنا في الشارقة وحدي أصبحت أنتظره برفقتها؛ الأمر الذي جعل انتظاره بين الجدران الأربعة يصير أخف وطأةً عليَّ. لكن بدأ هو يهملني بصورة غير مقصودة، ولم يعد يتحدث إليَّ. لم يعد يخبرني عن أصدقائه الجدد وعن المشاريع التي كان ينجح بها، عن الأبراج الجديدة التي تُبنى في دبي وعن ضرورة بقائه في موقع العمل حتى ساعات متأخرة من الليل كي يشرف على العمال. استمر في الغياب وتوقف عن تبرير غيابه. كان يحاول أن يبني تواصلًا مع ابنته، بدا أنه أحبها، وكان يحاول أن يرمم انقطاعاته عنها، لذلك لم يكن لديه الوقت من أجلي. كلما كان في المنزل كان يلاطفها. بينما كنت مثل الأريكة أو الطاولة، شيئًا لا يأبه الآخرون لوجوده إلا عندما يحتاجون إلى استخدامه. وفي غمرة اكتشافاتي وجدت نفسي أعود إلى سبل قديمة عرفتها النساء على مر الأزمنة.

كنت أسأم من بنات جنسي، أستغرب معاركهن وأترفع عنها. غير أنني أدرك بعد مرور سنوات متعبة طويلة لماذا أقدمتُ على إنجاب طفل آخر من كارم، ولم أعِ في حينها أنني كنت أحطم حياتي بنفسي بصورة لا رجعة عنها، بينما كنت أعتقد أنني أحميها. اختلطت عليَّ ذاتي مع العائلة. وكنت أريد للعائلة أن تنجو حتى لو على حسابي. كان رهاني خاطئًا، ولم يكن ينبغي لي أن أربط مصيري بكارم وبالعائلة التي تعبتُ في تكوينها. كنت أكرر خطيئة سليم. هكذا تصنعنا الحياة وفق مشيئتها وتفرض منطقها على الأفراد، وهكذا أيضًا كنت أدرك خيارًا بعد آخر ما ميز وداد عن غيرها من النساء، وتأكد لي أنني لن أشبهها. وعوضًا عن أن ينقص فضولي تجاهها كان يزداد. كلما تقدم بي العمر كنت ألمس حاجتي إليها بصورة أكبر. الحاجة إلى الأمهات لا تنقص. وبرحيلهن يتركن فراغًا لا يملأه أحد.

وبدلًا من البدء بحل المشكلة التي لم أكن أستطيع تحديدها، بدأتُ أزيد من تعقيدها بقرار الإنجاب الثاني، الذي كان بالنسبة إلى كارم شأنه شأن أي تفصيل آخر مرتبط بعائلتنا الصغيرة، مُلقى على عاتقي أن أُحدد إن كنت أراه مناسبًا. وكان يجب أن أسأل نفسي: مناسب لمَن؟ لي؟ له؟ لليال؟ لجميعنا؟ أم أن الإنجاب الثاني كان مجرد خطوة تقليدية لإنقاذ زواج فاشل؟

لستُ أدري.

لكنني كنت أفعل ما بوسعي لأدافع عن العائلة التي صنعتها. وكانت أعمق

مخاوفي هي أن أفشل، وأزعم أني نجحت. طفلاي كانا سعيدين وزوجي كان ناجحًا. أما أنا فلم أكن سعيدة.

اعتدتُ بعد أن أنجبت كميت أن أتحدث عن كارم بصفته زوجي، أسقطتُ اسمه من غير أن أعي، ومع إسقاط اسمه نقص شيء من الألفة بيننا. شيء دخل علاقتنا التي ما عدنا نفكر في أنها كانت تشهد مأزقًا. وقد عرفتُ من صديقاتي أنهن عِشن مآزق مشابهة في سنوات زيجاتهن الأولى.

عندما بدأت أسائل ماضيَّ بشكل جدي كان قد مضى أربعة عشر عامًا من الزواج. ومَن كان ليصدق أنني لم أكن أريد لذلك الزواج أن يستمر بعد السنة الثانية منه! انقضاء تلك السنوات كلها جعل الجميع يفقدون تعاطفهم معي.

* * *

أضاف كميت إلى حياتنا جوًّا طريفًا. إنه طفل لذيذ وصاحب نكتة، يثرثر كثيرًا، يشبِّهونه بي، وكنت أراه أكثر سعادة مني. سليم أيضًا كان يجد شبهًا بيننا. لكن في جزء مني كنت توقفتُ عن تصديق سليم منذ أن صرت أُمًّا، وبتُّ أعرف ما يدفع الذين يحبوننا إلى الكذب، ولربما تعلمتُ منه بعضًا من الطرق التي يخدع بها الكبار الصغار. كنت بحاجة إلى السلام وإلى إعادة سيرة طفولتي مع طفلَي. لذلك لم يكن زوجي يجدني أضحك إلا عندما ألعب مع ليال لعبة العرائس، أو أقص على كميت حكاية الفتاة التي أحضرت الطيور إلى البحيرة. كان لكميت خيال عجيب، وكنت في كل مرة أفكر في سيناريو مختلف للفتاة التي خرجت تبحث عن أصدقاء، فمرة تصادق السناجب، ومرة تصادق السلحفاة، وقد جعلها كميت مرة تصادق القرود، وكم أضحكني هذا الخاطر.

وأنا أغرق في عالم الطفولة الأثيري لم يخطر لي أنني كنت أبعد زوجي عنا، وأدفع به إلى عزلة لم أكن أقوى على تخيلها. كما بدا لي مرتاحًا لكونه أبًا بعيدًا، له حياته، ويجتمع بطفليه أيام العطلة. كان يجدهما نائمين عندما يرجع في المساء. وكان العمل يتطلب منه أن يمضي ساعات من الليل في موقع المشروع. مدينة المستقبل لا تنام والعمل فيها لا يتوقف.

بالنسبة إليَّ أحببت مع كميت كوني أُمًّا. هذا ما خفف لديَّ قسوة الشعور بالمسؤولية إلى جانب خبرتي التي كوَّنتها في شؤون الأطفال. كما أصبحت مرجعًا للأخريات من صديقات ومعارف، الأمر الذي كان يُضحك كارم ويُفرح

سليم. وفي لحظة ما من حياتي كان الجميع يراني أمًّا مثالية! وأنا صدقت هذا الوهم الذي حطمني. كما أنني أحببت الدور الذي كان يثقل كاهلي ويفتت وجداني. كنت عندما أتذكر مخاوفي القديمة عن فقدان الأم أتجنب التفكير فيما خسرت في ذلك الدرب، الذي يقال عنه تضحية الأمومة.

في حقيقة الأمر أنا لا أجدها تضحية، بل أجدني ممتنة لأنني أنجبت طفلين لهما ضحكات جميلة، وممتنة لأنني كنت طبيعية معهما. على الرغم من المشكلات الكثيرة التي كانت تحدث معي، أجدني أيضًا ممتنة لأنني تعلمت من مصادر كثيرة كيف أنتبه إلى سعادة طفلَي. الأهم أنني ممتنة لكارم كوننا نجحنا إلى درجة بعيدة في تجنيب الطفلين خلافاتنا. وهذا أمر لا أحد غير الأزواج يقدِّر صعوبته. وفي النهاية هو أمر مستحيل. لكن إلى درجة بعيدة ضمن إمكانيات البشر أزعم أننا كنا بطلَين في حمايتهما من نفسَينا. بعد ذلك لا أرى كل الخسارات ذات قيمة.

لقد أديتُ واجبي.

* * *

عندما رأيتُ كارم ضائعًا في غيابي ورأيتُ طفلَي عبر كاميرا الشات وكأنهما طفلا امرأة أخرى، بدأت أشعر بأنني هدرت عمري في دورٍ لشدة ما أخافني تحكم بي وصنعني. أَما الطفلة التي كنت أعتقد أنني أعيد سيرتها مع طفلَي فاكتشفتُ في القرية القديمة، وبينما كنت أرتب الأسرَّة في انتظار عودة سليم من المستشفى، أنني قتلتها.

لا أبحث عن سبب أبرر به انفصالنا. كنا أثقلنا حياتنا تحت أعباء الوحدة. وبعد أربعة عشر عامًا من الهروب من أسئلة الواقع، أصبحت لدينا قناعة بعدم وجود ما يمكن فعله من أجل استمرار علاقتنا سوى الوصول إلى نهاية هادئة لها.

كنت أنظر إلى حياة أصدقائي فأراهم فرحين في حياتهم، وكان ثمة رأي لفتاتي التي أدعوها «العابرة» بأن البشر كاذبون فيما يخص العلاقات. بل أحيانًا تكون المبالغة في إظهار أن الأمور بين المحبين على أحسن ما يرام مجرد تورية للفشل وإخفاء للتعاسة خلف الأضواء. يشق على الناس أن يعترفوا بفشلهم العاطفي كما لو أن الفشل يمس كرامتهم. كانت العابرة ترجوني ألا أصدق كل ما أراه، وكنت أشعر بأنها تتفهم دورها في حياتي، وبأنها لا تملك آمالًا بتغير طبيعة علاقتي بها. لربما كانت تعرف أن علاقتنا محكومة بعلاقتي بنسرين، وأي تغيير في حالي مع نسرين سوف يغير علاقتي بها.

هكذا كنت أقحم نفسي في علاقات معقدة، من النوع الذي لم أعد أعرف معه مَن أحب وأرغب فيها فعلًا. كان كل شيء متاحًا أمامي، ما فاقم صعوبة الاختيار في حياتي. أحببت الأجساد الممتلئة، وكانت نسرين مثالًا للجسد الممتلئ النقي، فشاماتها كانت تظهر مثل ندف سوداء في الثلج. ولا أذكر تغيرًا طرأ على جسدها بعد فترتَي الحمل. عندما ذهبتُ إلى سورية بعد ولادتها ليال بأشهر وجدتُ نسرين كما كانت عندما جئتُ لخطبتها. وألمح سليم إلى أن حملها يشبه حمل والدتها. مع أنني لا أعرف تلك المرأة التي كان يتحدث عنها كثيرًا في غياب ابنته، وكان يريد أن يشرح لي بإصرار مؤسف أنهم كانوا عائلة سعيدة. وكنت أشعر بأن في تلك العائلة لغزًا كبيرًا من النوع الذي لا يمكن حله. كما لم أكن أنتظر أن أعرف المعلومات التي حرص الرجل الطيب على تقديمها لي، بعد مقدمات وأحاديث عن تلك الحياة التي لم ألمح منها سوى الفراغ الذي ملأ عالمه، وجعل من ابنته امرأة حزينة.

كنت جاهلًا، ولم أستطع أن أخمِّن أن سليم كان يقص عليَّ حكاية وداد كي أفهم نسرين. أعترف بجهلي. لكنني كنت أشعر بأن كلماته تحمل توبيخًا لي. لذلك شعرتُ بأن نسرين أهانتني، يا لحماقتي وأنا أذكر ذلك، أدرك أنني كنت شابًّا واهمًا بمعرفة الحياة.

بقيتْ تلك السيدة الغائبة التي لا تتحدث عنها ابنتها البتة، ولا يتحدث عنها سليم إلا بلغة محبة، غامضة بالنسبة إليَّ، لا أخال أن أحدًا سيكشف سرها، وكان للحديث عنها جاذبية من نوع لم آلفه في حياتي. كنت قد نشأت لأسرة متماسكة. عشت طفولتي الأولى وكبرت في السعودية لعائلة سورية خرجت من أجل العمل في منتصف السبعينيات. وعندما تقاعد والدي بنى له منزلًا ريفيًّا على أطراف التل في ريف دمشق، ودُمر المنزل مع ما دُمر في سورية التي يشق عليَّ أن أسميها بلدي. كان والدي وإخوتي أشخاصًا لا أقول إنهم قساة، وإنما كانوا رجالًا عمليين. وكان غريبًا عني وجود رجل يمتلك عاطفة سليم ولغته المتسامحة عندما يتحدث عن الماضي.

كنا أنا ونسرين من منبتَين مختلفين. نشأتْ نشأة عاطفية على الرغم من غياب الأم، وربما بسبب غيابها، فكل مَن التقيت بهم من عائلتها كانوا يراعون مشاعرها. بينما نشأتي كانت بسيطة وخالية من تعقيدات العاطفة، ربما باستثناء أن والدتي اقترحت على والدي أن يسمياني على اسم المطرب كارم محمود. هزني رحيل نسرين عني، وشعرتُ بأنني خسرت. كما أن لديَّ شعورًا تجاهها لا أسميه «الحب»، فأنا لم أعد بعد استقرارنا في الإمارات أحبها الحب الذي يتبادله الأشخاص يومًا بيوم. كما أصبحتُ أرى الحب شأنًا ذاتيًّا مرتبطًا بي، كفرد، حتى وأنا أعيش وحدي أو مع آخرين، صار الحب قيمة ثابتة في حياتي. لكن نسرين عرفت الدنيا من خلالي، وتخليها عني جعلني أشك بجدارتي.

لم أكن أتساءل عن الحب كثيرًا، وإنما كنت تلقائيًّا وتركته ينمو ليأخذ مفهومًا متماسكًا لديَّ. عندما وجدتُ نسرين عرفت أنني أحبها، وقبل ذلك لا أذكر أنه كان لإحداهن وجود فارق في حياتي. غير أن حبي لها وسكني معها لم يجعلا مني إنسانًا سعيدًا. فعرفتُ أن الحب لا يصنع السعادة دائمًا. قد يصنع خصوصية علاقة عن أخرى، غير أنه يجعل الحياة عندما تتأزم العلاقة أكثر تعقيدًا، ويصير كل أمر شاقًّا؛ لا الهجر هين ولا الوِصال يسير. الحب يجعل من أي قرار قرارًا صعبًا، لذا كان يعز عليَّ الابتعاد عن نسرين، كما كان لاقترابي منها حسابات متعبة كثيرة.

بسبب عملي لم أكن إلى جانبها خلال فترة حملها، ما دفعها إلى التفكير في العودة إلى سورية والولادة هناك. وعندما استطعتُ اللحاق بها كانت ابنتي قادرة على أن تحبو. كان لديَّ دائمًا ما يعفيني من الندم، ولم أشغل نفسي

بضرورة تقديم الأعذار للآخرين. أعترف بعد السنوات التي تراكمت أنني لم أكن أعي أثر غيابي عن نسرين. ولم يكن لديَّ الوقت الكافي لانشغالات تفرضها صعوبة الحياة على الوافد الجديد إلى الإمارات، وهي ما إن أنجبت حتى انشغلت بعالم لم أكن أفهمه. كنت أعمل من أجل الوصول إلى الرفاهية. هذا هو العالم الحديث، تعمل وتعمل ثم تكتشف أنك لم تعِش خارج ضغط العمل.

اقترحت على نسرين أن تعود معي إلى الإمارات بعد أسبوعين قضيناهما معًا في فترة إجازتي السنوية، غير أنها فضَّلت البقاء في سورية. لم ألح عليها. حتى ليال كانت سعيدة بين أهل نسرين. وبدأتُ أخشى أن نسرين لن تعود إلى العيش معي من جديد، لكنني لم أضغط عليها، بل تركتها مرتاحة في قرارها ولم أناقشها. وهكذا افترقنا مدة عام آخر، عدتُ في نهايته كي أقنعها بأن تفطم ليال، ثم عادت معي، وخلال هذين العامين، كحال الآباء الجدد، كان تواصلنا محدودًا بأخبار ابنتنا.

عندما عدنا عائلة نسكن منزلًا واحدًا، أردتُ أن آخذ دور الأب. وكنت مثل مَن يدخل لعبة في منتصفها لا أعرف ما المطلوب مني. وفضَّلت أن أبقى مراقبًا، على أن أحتمل نظرات نسرين التي كانت تدينني باعتبار أنني أب جاهل وبعيد، كما لم أكن إلى جانبها في أوقاتها الصعبة. لربما تتفهم المرأة صعوبات الحياة، لكنها لا تغيِّر قناعاتها تجاه الرجل ولا تغفر له إهماله شؤونها. كان عمر ليال آنذاك عامين، ومضى على فراقي أنا ونسرين عامان وعدة أشهر، وأصبحنا من جراء الصعوبات التي عرفناها كلٌّ بمفرده شخصين آخرين غير اللذين تحابا في الجامعة ثم سافرا ووجدا نفسيهما يصنعان عائلة.

فعلت ما بوسعي كي أتقرب من ليال وكانت تبدو لي صغيرة ولطيفة، تتحرك كثيرًا، وتأخذ في طريقها كل ما يأتي أمامها من ألعاب ووسائد وأشرطة فيديو لترميها عليَّ. وكنت عبر التودد إليها أحاول معاودة التقرب من نسرين. استخدمتُ ليال كي تقربني من نسرين. لكن نسرين كانت ما إن ألاعب ليال حتى تجلس وتتأملنا، ولم يكن تأملًا عاديًّا، كنت أشعر بأنها تغيب في عالم أجهله. ومرة صارت تبكي بينما كنت مع ابنتي نضحك وليال ترميني بأقلام التلوين. ارتبكتُ حينها لأنني أدركت أنني أعيش مع امرأة عاطفية إلى درجة أعرف فيها أنني لو احتضنتها لغرقتْ في نوبة بكاء حارق. لم أكن أطيق هذه الأجواء الدرامية. كنت ألعب مع ابنتي بينما دموع الأم تنهمر من دون أن

أفهم سببها. مع شعوري بالشفقة تجاه نسرين، ومع رغبتي في أن أقف إلى جانبها وأحتضنها، فإن ما فعلتُه لم يكن متوقعًا بالنسبة إليها، وحتى بالنسبة إليَّ. أخذتُ ابنتي وابتعدنا عن الأم. لم أشأ أن ترى الطفلة بكاء الأم المحموم، وعرفتُ أن لدى نسرين مخاوف أكبر مما كنت أتصور.

لم أكن أقوى على مساعدتها، وشعرتُ بأن عليَّ أن أتركها حتى تستوعب أزماتها. أردتها أن تكون قوية بالفعل. وكنت بذلك الفعل القاسي أرمي بها إلى العزلة، مع أنني لا أفهم العزلة على النحو الذي يحطم البشر. كما أشعر بأن الإنسان الذي لا ترهبه العزلة يستطيع بالقليل من المحبة تقديم العون للآخرين.

بدأتُ أتعلق بليال بمعزل عن علاقتي مع نسرين. لذلك عندما بدأت ليال تدرك طبيعة العلاقات التي تربطها معنا ومع الآخرين، واكتشفت غياب الإخوة، استطاعت بكلمات قليلة إقناعي بحاجتها إلى الإخوة. لم أكن أستطيع أن أرفض لها طلبًا. عندما أصبحت في الرابعة من عمرها أرادت أن يكون لها أخ. وفي أوقات كثيرة كانت تقف أمام المرآة تعقص شعرها وتلعب مع نفسها دور الأخ. كان ذلك مؤلمًا بالنسبة إليَّ. وهكذا إلى جانب محاولات نسرين لإقناعي جاءنا كميت. لربما كان لليال أثر أكبر من أثر نسرين في قراري، فدموعها وهي تطلب مني أن أحضر لها أخًا من السوبرماركت كانت مؤثرة بي. بينما نسرين أرادت طفلًا آخر مني لأن إشارات بذلك كانت تحدث، ولم أكن أفهم عدم وضوحها. جعلتني عقلانيتي أحب الوضوح قبل أن ينقلب كل شيء عليَّ.

حاولنا أن نفصل ليال، ولاحقًا كميت، عن علاقتنا المعقدة. كان وجودهما دافئًا وبسيطًا وحقيقيًّا. وكنتُ أريد لنسرين أن تتوقف عن الخوف من الوحدة. كنت أريد منها الانسلاخ عن ماضيها، وأعي بعد الهجر الذي طال بيننا أن معركتي تلك كانت معركة خاسرة.

كانت نسرين تراني أنانيًّا، وربما كنت كذلك لكن ليس إلى الدرجة التي كانت تظنها. فقط أحببت أن تسير الأمور وفق تصور اعتيادي وأن أكون رب الأسرة. غير أن هذا التصور بات تصورًا قديمًا على ما أعتقد. وحدثت كل الأشياء كما شاءت لها نسرين. سافرت معي عندما أرادت، وأنجبت عندما أرادت، وعادت إلى سورية عندما أرادت. وأنا كنت أحبها. كان هذا دوري.

أخذ العمل وقتي بالكامل في السنوات الأولى من حياتنا، وعندما انتقلنا إلى دبي حيث الحياة المترفة مع تحسُّن أحوالنا المادية، بدأنا نخرج من المنزل

أكثر من قبل، غير أن نسرين لم تكن تتقبَّل صداقاتي. كنت محبوبًا من النساء في الدوائر القريبة مني، ذلك لأنني كنت مستقرًّا حيال نزعاتي الذكورية. وكنت أفصل الصداقة على نحو قهري عن أي رغبة أخرى. كانت في حياتي علاقات غرامية. لكن لم يكن يربطني مع صديقاتي سوى المودة. وكانت نسرين تفتعل مشكلة مع مَن تتودد إليَّ، حتى إنني لم أكن أجرؤ على أن أتودد إلى إحداهن في حضورها. لأنني كنت مراقبًا منها حتى لو بدت غير آبهة بي. ثم سرعان ما تعبت، وتوقفنا إثر شجارات أراها اليوم فارغة عن الخروج معًا. تركتُ نسرين لعالمها العصي عليَّ وقررت أن أعيش حياتي. وأن يعيش المرء حياته هي إشارة واسعة إلى التيه. لم أكن أعرف من أين أبدأ من جراء سنوات الارتباط بامرأة تحيل كل أمر إلى دموع.

كانت روحي قد فقدت شيئًا من عفويتها، وشعرتُ مع رغبتي في أن أعيش بأنني من أولئك الذين ما عادوا يريدون شيئًا من الدنيا، وهؤلاء كما سيكشف لي الزمن أشد الأشخاص شغفًا في الحياة.

* * *

قادتني أولى تجاربي الغرامية إلى طبيب الجلدية، وهذه حادثة كنت آمل لو أنني استطعت قصها على نسرين. غير أنني لم أمتلك الجرأة على كشف أوراقي أمامها، أو أن أتسبب لها بألم يمس أنوثتها. بقيتُ مقيَّدًا بوجود نسرين في مغامراتي العاطفية الأولى، وكان يعز عليَّ أن أكون مع امرأة غيرها. لكن لم يكن بوسعي فعل شيء، حتى إنني صرت أجد نفسي مخادعًا ومخطئًا وأعيش بوجهين. ومَن يعِش حياة مزدوجة يجد نفسه خاضعًا بصورة قهرية إلى فصل للأحاسيس، فيُظهر عكس ما يشعر به في أوقات كثيرة.

أخبرني طبيب الأمراض الجلدية، وهو مغربي الجنسية، عن احتمال ظهور طفح جلدي على كامل جسدي لأسباب نفسية، كوني لا أعاني التهابًا، ولم تظهر عليَّ أعراض مرضية مرافقة للطفح. كما لم نكن في وقت من السنة تشكو فيه بعض الأجساد من حساسية موسمية. وبقي أمام الطبيب تشخيص الحالة على أنها ذات منشأ نفسي. كما عزى ذلك، حتى يخفف المسألة عليَّ، إلى وسواس قهري بالنظافة. وليكسر قتامة تلك اللحظات أردف: «أو لديك شعور بالخطيئة إن كنت رجلًا مؤمنًا». وبالفعل كنت رجلًا لديه إيمانه الخاص في جوانب عديدة من حياته.

كنت أؤمن بحبي لنسرين وكنت أؤمن بفكرة العائلة التي تجمعنا. وأعتبر أنني عرفت الخطيئة، والبثور ملأت جسدي لأن الشك داخل إيماني. طمأنني الطبيب بأن البثور ليست مُعدية، وهذا عقلاني، فالشعور بالخطيئة ليس شعورًا معديًا.

كنت أتألم من غير أن أعي عمق ألمي وطبيعته، وكنت منفصلًا عن ذاتي بسبب الحياة المزدوجة التي بدأتُ أعيشها من جانب، وبسبب الحياة العملية التي كانت تأخذني من نفسي وعائلتي من جانب آخر، إذ كانت الوقائع تدفعني دفعًا عنيفًا كي أنجح في عملي. وأنا أتذكر أزمة الرهن العقاري والتغيرات التي طالت الشركة التي كنت أعمل بها، أتذكر الزملاء الذين تخلوا عنهم، والزملاء الذين خفَّضوا رواتبهم. وأعرف أنني كنت بطلًا استثنائيًّا، وكان لبطولتي ثمنٌ طال عائلتي. النجاح في دبي لم يكن أمرًا من غير أثمان، وجعلني جسدي أعي الدرجة التي كنت أحب نسرين فيها، بعدما قدَّم اعتراضًا على خيانتي لها، فأجساد المُحبين تصنع ذاكرة ليس يسيرًا تجاوزها. لم تكن لديَّ الطاقة لألتفت إلى شؤون العاطفة التي تجمعني بنسرين. لذلك كان أيسر عليَّ قضاء حاجتي الجنسية خارج ما كانت ترميني إليه نسرين من تعقيدات شتى.

لم أقص حكاية البثور المفاجئة على الفتاة العابرة التي ارتكبتُ معها خطيئتي الأولى، بل قصصتُ الحكاية على فتاة ثانية قدَّمت لي نصيحة بحاجتي إلى عشيقة أعيش معها بالتوازي مع حياتي في المنزل، وفسرتْ أن سبب شعوري بالخطيئة ليس المشاعر التي لا أزال أكنُّها لزوجتي، وكنت قد بدأتُ منذ عرفت غيرها أدعوها بـ«الزوجة»، بل استنتجت الفتاة من حذري المبالغ به معها أنني إنسان مهووس بالمعايير. وهذا صحيح. ولكنها رأت أن خوفي من تقديم جسدي إلى فتاة لا أعرفها هو ما أثار البثور الحمراء ولطَّخ بها جسدي كاملًا. كان في ذلك وجهة نظر لم أكن في وارد تفنيدها، إذ كنت أعتقد أنني أحتاج فقط إلى أداء جنسي جيد. لم أكن فطنًا بعدُ لحاجتي إلى شريكة أعرف جسدها وروحها. ولم آخذ رأي العابرة في أنني أحتاج إلى عشيقة على محمل الجد. كنت أريد أن أعود وألملم شؤون منزلي، ولم تتوقف هذه الرغبة عن مراودتي طوال حياتي التي كانت تمضي دائمًا في مسارين؛ أحدهما خارج المنزل مع فتيات عابرات يشعرنني بالحب والدفء على الرغم من غياب ما يجمعني معهن، والآخر داخل المنزل مع امرأة تبذل ما بوسعها كي لا تشعرني

بالحب على الرغم من أنها امرأة حياتي.

مع ذلك كنت مُستلبًا، وأدركت أن الزواج لا يغير المرء، لكن الأطفال يغيرونه. وبدأ شعوري تجاه ليال يغيرني، وكلما كانت تعابيرها تزداد لطافةً، كنت أحاول أن أقضي وقتًا أطول في المنزل معها ومع نسرين التي كانت تندمج معنا تدريجيًّا، وشعرت بأنه بالإمكان أن نعود لننبض بقلب واحد. عدنا للخروج معًا في جلسات مع الأصدقاء وسهرات أسبوعية، كنا نقضيها صامتين في طريق الذهاب لأي سهرة، ونتجنب بعضنا في الأحاديث وعند تبادل الكؤوس. وفي طريق العودة نبقى صامتين، وأحيانًا نتبادل تعليقات باردة عن موقف حصل في السهرة. عندما نصل إلى المنزل إذا ما كنت أشعر بالإثارة أحاول التودد إليها، الأمر الذي كان يرهقها. لم تكن لتصدني بخشونة، بل كانت شراييها الزرقاء تنفر بسبب اضطرابها. وتكرار الصد الرهيف جعل صورتي أمام نفسي تصبح سيئة. بدأت أشعر مع نسرين بأنني غريب عنها، أنني مجرد متحرش، بل ومغتصب. لم تكن نسرين تخبرني باحتقارها لي في تلك اللحظات، لكن شراييها الزرقاء كانت تكشف لي اضطرابها دائمًا.

مرة أنهيتُ العمل في موقع المشروع الذي أشرف عليه في وقت مبكر، وكنت مهتاجًا بسبب شعوري بالنجاح، ووددت أن أحتفل بطاقتي كلها. شعرت بسبب النجاح بأن كل خلية في جسدي تريد أن تعبِّر عن نفسها. طعم النجاح لذيذ، ويدفع المرء إلى طلب مزيد من اللذة. وعلى هذا النحو وجدت نفسي في الطريق إلى نسرين، ولأنني أحبها كنت أريد مشاركتها كل ما أشعر به. كنت أريد قضاء وقت حميم معها، لأننا منذ توقفنا عن الكلام المتبادل الطويل بدأنا نستخدم جسدَينا في التعبير، أردت امتلاكها في تلك الظهيرة. وعندما وصلتُ إلى المنزل وجدتُ الأمر مرتبًا بشكل ساحر. ليال نائمة، ونسرين ترتدي بيجامة مصنوعة من قماش «أطلس» بلون الموف وبروتيلًا بلون بيبي بينك يكشف كتفَيها، كما لم تكن ترتدي حمالة صدر، وكان مشهدها العادي في المنزل أكثر ما يشعرني بالإثارة. كانت نسرين تسقي أزهار فم السمكة المعلقة خارج النافذة، ومدينتي الساحرة دبي تظهر أمامنا بوجه كان يفتنني. فأنا ممن صنعوا لوحة دبي الباهرة. هذا هو نجاحي مجتمعًا مع امرأتي في مشهد واحد. اقتربتُ من نسرين، تركت قُبلة مبالغًا بها على كتفها العارية. كما أمسكت بخصرها ثم شددتها إليَّ. عصرت ثديَيها، ورفعت يدي إلى العظم الفرنسي أعلى صدرها. مرَّرت أصابع يدي إلى رقبتها، وأمسكتُ الترقوة بكف

يدي، ثم قبَّلتها من جديد على رقبتها وأذنَيها. لم أرَ وجهها. لكنني كنت أتوقع استغرابها. ذلك لأننا كنا توقفنا لسنوات عن تلك الحركات التي تحدث بين المحبين. لا أنكر أنني تماديت حينها وتركتُ قُبلات مبالغًا فيها على رقبتها وأنا أنظر إلى دبي مُثارًا ومبتهجًا. وعندما حاولتِ التخلص مني التفتتْ إليَّ، ورأيتُ شراييها الزرقاء واضحة تحت بشرتها الرهيفة لشدة سخطها عليَّ واحتقارها لي. الاحتقار الذي شعرتُ به بوجه من وجوهه ضد دبي، وهذا ما لم يكن مفهومًا بالنسبة إليَّ. ثم قالت لي ببرود مستفز ومبالغ فيه:

ـ لستُ في المُود.

لم أستطع كبح استيائي، ولم أستطع أن أستوعب مزاجيتها، فقلت:

ـ ومتى كنتِ في المُود؟

ـ أنتَ تبحث عن مشكلة معي؟ اخرج مع أصدقائك واتركني كما العادة.

وكان يمكن للموقف أن يتطور بيننا، فكل البهجة التي شعرت بها في موقع العمل وفي الطريق إلى المنزل، وعندما رأيتها تسقي فم السمكة وتنظر إلى مدينتي الأثيرة، صارت في لحظات غضبًا خالصًا. قسرتُ نفسي على رد بارد:

ـ أوكي. هذه هي العادة. صحيح.

وخرجتُ من فوري، وأغلقت الباب بقوة لا شك قد أزعجتها، وقد أردت إزعاجها فعلًا. انطفأت رغبتي. وشعرت بأن نسرين، من غير وجه حق، كانت تسلبني شعوري بالنجاح، وترمي عليَّ فشلها في عدم قدرتها على بناء صداقات في الإمارات التي قدَّمت لنا الكثير. كما وجدتْ نفسها دخيلة على أصدقائي. على الرغم من اختلاف بلداننا كنا من أعمار وتجارب متشابهة، وكنت أحاول أن أجعلها تلقائية معهم. تقرَّبت منها صديقات لم تحب نسرين طريقتهن في الاستعراض. لكننا كنا نعيش في عالم استعراضي محض، هذه هي الحقيقة التي لم أكن أملك شيئًا حيالها، الجميع يعيش في سعي مهووس لإظهار ما لديه. ونسرين كانت ضد هذه الثقافة. كنت أفهمها. وحاولتُ ما بوسعي ألا أشعرها بأنها جاءت من بلد حاضره مختلف عما كانت تراه في دبي.

ثم بعد سنوات عندما بدأت أحداث غامضة بالنسبة إليَّ تحدث في بلدها، بدأ يتضح الفارق بين انتماءينا. وكانت نسرين ترتبك أمام أخبار تصل إليها. وبدأتْ مع بداية الأحداث في بلدها تعيش في قوقعة القلق والخوف على الناس من

حيث جاءت. بينما الحياة في دبي كانت حياة طبيعية. خارج القوقعة التي دفعت نفسها إليها، كانت الحياة حلوة. والدنيا لم تكن متوقفة إلا عند زوجتي المشغولة على أهلها.

بدأتُ أشعر بأن نسرين من خارج السرب الذي بات يؤلف حياتي، مديري في العمل وزملائي وأصدقائي القدامى الذين دخلوا أيضًا مسارات مشابهة. لم تكن نسرين تريد أن تنتمي إلى أي منهم، وصارت أشبه بالعبء في طريقي. مع أن أحدًا لم يبذل جهدًا كي يتقرب منها على نحو يستلزم مخاوفها غير أن ودهم ذاك، وبسبب ثقافاتهم الاستعراضية، كان ودًّا مشكوكًا في أمره بالنسبة إليها. وكان هذا من حقها. أنا لا ألومها. لكنني مختلف عنها، ولكي أنجح اضطررت إلى دخول علاقات يجد المرء نفسه فيها، وباستمرار، يحاول الاقتناع بأن ما يعيشه حقيقي. حتى إنني اعتدتُ العلاقات التي تتركك قلقًا حيال أصالتها.

بالنسبة إلى نسرين فالعالم الحقيقي هو العالم القديم في اللاذقية، عالم أبيها وطفولتها. وقد كانت من أولئك الذين يحبون أن يعيشوا في الماضي، وفي النهاية لم يكن لها مكان في مدينة المستقبل، مدينة العالم الجديد.

لو أنها أتاحت لي أن أخبرها عن السنوات التي تضيع من الإنسان قبل أن يتعلم ألا يلتفت إلى الماضي، وأن الأشياء المؤلمة التي تصنعنا هي التي تمنحنا المعنى. لكنها كانت غارقة في ماضيها الخاص ومن غير رحمة.

مع انتقال سكننا إلى دبي وذهاب كميت إلى الروضة وليال إلى المدرسة، بدأت أحاول فهم المكان الذي كنت أعيش فيه لسنوات، وبدأت أفكر في نيات الآخرين التي قد تقف وراء أحاديثهم. لم أعد فتاة عفوية وكان هذا يعجبني، في الوقت نفسه كان يشعرني بأنني أكبر في العمر. ولم تنجِّني إقامتي في الإمارات من تبعات الأحداث التي كانت تجري في سورية. كنت أشعر بأنني مذنبة كون حياتي تجري طبيعية، بينما كان أهلي يُقتَلون.

كانت الأحداث السورية قد بدأت بالخروج عن السيطرة عندما بدأت العمل مع ازدياد المصاريف في دبي. وبقي الشعور بالذنب يقضُّ عيشي، وهذا عطب لربما أصاب كثيرًا من السوريين بعد خروجهم من المأساة بحسب مزاعم نديم، صديق كارم اللبناني. كما كان لديه رأي متطرف حيال مَن نجا بأن بعضهم أُجبر على أن يكون وغدًا كي ينجو. وكان نديم أقرب أصدقاء كارم إليَّ، فهو يتحدث بالنيابة عني عندما كانوا يتداولون أخبار الناس العالقين في سورية. وأصفهم بالعالقين لأني لا أجد وصفًا آخر لمأساة عيشهم في سورية. إنهم لا يستطيعون المغادرة ولا يستطيعون البقاء، وحكايتهم تشبه حكاية انفصالي التي استهلكت ثمانية عشر عامًا من حياتي.

كان نديم يذكِّرني بانتمائي إلى سوريين يشتركون معي في مُصاب النجاة، وزعم أن من بين أصدقائه مَن يعاني شعورًا بتأنيب الضمير. فالخلاص الفردي ليس أمرًا هينًا ومن غير تبعات كما هو شائع. كان نديم مؤهلًا ليتحدث نيابةً عني بسبب حروب اللبنانيين، وهجرتهم من بلادهم في ليالٍ مظلمة مثلما حدث لنا. لا أتحدث عن نفسي فأنا خرجت من أجل الالتحاق بزوجي. بل أقصد الآخرين الذين اضطروا إلى الخروج في ليالي سورية السوداء. ولا أعرف لماذا أفكر بهم مجددًا. كانوا مع آلامهم مجرد حديث لنا في مول دبي وبرج العرب. بالنسبة إليَّ لم أستطع، ونديم يهتم بي، أن أفصل حديثه عن غايته بالتودد إليَّ، ومصائب الآخرين وحتى مقتلهم كانت جسرًا للحديث فيما بيننا.

وأنا أذكر حكايتي مع نديم ما يهمني أن أقوله إن كارم في نقاشات كثيرة كان يتابع اهتمام نديم بي، وبدأتُ أشعر بأنني أغيب في ظلال الآخرين وكارم كان يرجو ذلك الغياب. أنا متأكدة من فهمي للحيلة التي هدرت حياتي؛ حيلة الحب الآمن والعيش في كنف رجل واحد، أو ربما البشر يتغيرون فعلًا مع

الوقت. بالنسبة إليَّ كنتُ قد كبرت برفقة رجل لم تغيره السنوات وهو سليم، الذي لم يكن التقدم إلى الأمام يعني له سوى المزيد من الوحدة، ولم يكن التراجع يعني له سوى ألم الذكرى. عشتُ أكثر من نصف حياتي برفقة رجل عالق، ولا أستطيع أن ألوم كارم لأنه كان يتغير باستمرار.

أتذكر نديم وأحاول أن أعيد ملامحه إلى ذاكرتي. لم تكن له ملامح خاصة تترك انطباعًا مؤكدًا عنه. كان شكله باهتًا، أقصد ليس فيه ما يميزه عن الآخرين. ومرة مازحته:

ـ ممن أخذتَ ملامحك، من الثعلب أم من الحمل؟

ضحك من كلماتي المدعية ضحكًا صافيًا، فشعرتُ بأنني يمكن أن أكون قريبة منه. وكان يعرف كيف يتعامل مع النساء:

ـ أخذتها ممن يجعلك تنتبهين إليَّ.

كنت أجيد الضحك برفقته، ربما كان ذلك الانطباع المحبب الوحيد الذي تركه. وربما لهذا شعرت به قريبًا مني، إذ لم يكن يترك انطباعًا بأنه شخص يتحلى بأهمية ما. كان رجلًا عاديًّا وفي هذا جاذبيته. لكن من جراء اهتمام نديم بي بدأتُ أضعه مقابل صورة كارم، الذي كان يتحول إلى رجل متباهٍ يتحدث عن نجاحه واعتماد متعهدي البناء عليه، خصوصًا مع نجاح الشركة التي يعمل بها في تجاوز أزمة الرهن العقاري، وانتقالها من شركة يهددها الإفلاس إلى شركة رابحة خلال سنوات قليلة. هل كانت هذه الأمور تشغلني فعلًا؟

لست متأكدة.

أقحم كارم أعماله في حياتي بصورة مقيتة، وكان العمل حديثه الوحيد. على العكس كان لحديث نديم خصوصية. كان يشعر بي. يشعر بألمي. وكانت تجري بيننا عذوبة ورِقة مفرطتان. لم أكن أود أن أقاومه، مع أنه بقي متحفظًا معي على نحو مربك. ربما كان بيننا ما يدعوه الناس بـ«الكيميا». غير أنها كانت كيمياء غامضة ومتنافرة، تجيء من اهتمامه بي وإنصاته إلى أحاديثي التي كنت أخالها لا تحمل قيمة، ومن تجنُّبه لي في آن معًا، كما لو أن لديه قرارًا ألا يتطور ما كان يجري بيننا.

كنت أُبعد عن تفكيري فكرة أنني امرأة متزوجة، وأتجنب التفكير في وجود زوجي بيننا. ولم يكن هذا صعبًا عليَّ ما إن فقد كارم البريق الذي كنت منحته إياه مرارًا. الأمر الذي جرحني أن نديم كان يعتبر كارم حاجزًا يمنع تطور

علاقتنا. هذا ما وصلتُ إليه بعد مقاطعات ذهنية كثيرة، حتى إنه لم يعترف لي ولو لمرة واحدة بأنني أعجبه. ولم أنجح رغم المزاح الذي أتحته بيننا في أن أشعره بإمكانية أن يكون قريبًا مني. كنت أسأل نفسي الحائرة: ما دام أنه لم يحسم أمر صداقته مع كارم أو أنه ينظر إلى العلاقات تلك النظرة المتداخلة التقليدية، فلمَ أرسل إليَّ التلميحات بأنني مختلفة عن البيئة التي كنا نعيش فيها، وبأن الألم الذي أشعر به كان يجعل مني امرأة مختلفة؟

ليس لديَّ جواب.

لكنْ ثمة صنف من الرجال يبقى ضائعًا. وقاومت كي لا أعتبره خسيسًا، وكي لا أراه مجرد صبي جاهل. فالصبية الجاهلون لم أعطِهم الفرصة كي يتقربوا مني. قاومت ضرورة احتقاري له كي أُبقي صورتي عن الحب ناصعة. وقد نجحتُ دائمًا في أن أترك العاشقة التي بداخلي في مأمن من الخديعة ومن السوء، لأنني استسلمتُ منذ البداية إلى حقيقة أن الإنسان عاجز، وعجزه هو ما يجعل من العيش من غير قيم أو العيش بقيم مضروبة عيشًا مرغوبًا.

وهكذا عشت حياتي من غير أن تكون لي قيم أعود إليها بين موقف وآخر، وبدأت أفكر في أن الخيانة تجيء من طبيعة الحب نفسها. ولم أكن أجدها أمرًا يحتاج إلى أسباب.

مهما بدوت مثالية فإن البشر المثاليين كانوا يثيرون سخطي، وكنت أراهم مزيفين أو من غير تجربة. غير أن إحساسي بالوحشة أخذ يزداد كلما منحتُ الأجنحة لأفكاري. الحرية تجربة قاسية. وكنت بفقدي كارم فقدتُ أكبر مسلَّمات حياتي، خصوصًا أنني فقدته أصعب الفقد. كان لا يزال يعيش معي في المنزل، غير أنه صار شخصًا آخر لا شيء يهز وجدانه. وغفرت له لأنه لم يكن مثاليًّا، بل كان أنانيًّا بصورة واضحة، وفي الوضوح منجاة حتى من الكراهية.

* * *

علمني سليم كيف أمنح من غير أن أشعر بالندم، وأحفظ الود لمن يحمل لي السوء، وأن أُقدِّر نفسي حق قدرها. علمني أن أكون محبوبة وفاتنة في أعين الناس جميعهم. حررني من آلام كثيرة كانت تلجم صديقاتي عن العيش بأقصى ما يستطعن كي يتجنبن الندم. وعندما منحني سنواته كلها، وهبني ما لا يمكن أن يُنتزع مني. عرفت منذ طفولتي كيف أكون الفتاة الأثيرة لأحدهم؛ ما

جعلني أشعر بالطمأنينة دائمًا.

كثيرًا ما تحضرت للانفصال عن كارم. وأدرك بمضي السنوات أن مَن يرِد المغادرة بالفعل لا يحضِّر للأمر، وإنما يمضي فحسب. وكان الرحيل بالنسبة إليَّ أشبه برحلة تعيدني إلى نفسي التي توهمتُ فقدانها في سنوات الزواج الطويلة. ربما كنت أتذرع بوجود الطفلين كي يستمر زواجي، وكنت أدافع عن حقي بأن أكون مخدوعة. أما في داخلي فقد كنت أعرف أنني لا أريد أن أعود إلى سورية، التي بدأت تنهار بالنسبة إلى مَن يراها من الخارج. وكان يصعب عليَّ أن أبدأ من جديد. كما أصبحتُ أفهم تعابير دارجة عن خريف العمر، وأفهم تشبيه النهايات بتساقط الأوراق. بلدي كان يتساقط ويتفكك في العراء، وكنت أشعر بالذبول سنةً بعد أخرى.

وهكذا أصبحت من غير قوة، أعرف الحل غير أنني لم أعد أستطيع إنقاذ نفسي. كما لم يكن برفقتي مَن أوكل إليه حياتي أو أخبره عما أشعر به. لم تكن الصديقات الغارقات بمشكلات حقيقية يفهمنَني، وسليم صار بعيدًا. لا أقصد سكننا في بلدين مختلفين وإنما مع الوقت أصبحت أنظر إليه على أنه جزء من ذاكرتي. ولم أكن أنانية إلى درجة أن أخرب صفاء شيخوخته.

منذ البداية لم تكن لديَّ مع كارم خيارات سوى الغربة، وهو خيار لم أندم عليه. وعندما تغيرت الأحوال في سورية بعد سنوات الاقتتال أدركتُ أن سفرنا أنقذنا. لكنني في أعماقي كنت أريد لعائلتي أن تكبر على نحو كلاسيكي بأن يزور طفلاي جدهما نهاية كل أسبوع. مضت حياتي كما تمضي حيوات الآخرين، وحتى لا أبدو مفرطة في التعبير، مضى جزء كبير من حياتي على نحو لم أكن أريده. في النهاية استعدتُ زمام حياتي العادية التي ليس فيها ما يميزها.

إذا ما كنت أحسد كارم على أمر ما فإنني أحسده على غياب التوقعات عن تفكيره، ما جعله محصَّنًا من الخيبة. لم يكن شيء يزعزع شعوره نحو الآخرين، فشعوره كان غائبًا بغياب الأفكار المُسبَقة. أمر آخر كشفه غياب انفعالاته تجاه ما كان يصل إلينا من أخبار أهلنا، لم يكن كارم شخصًا باردًا، وإنما لم يكن أمر الحرب يعنيه. أحيانًا أفكر في نفسي، ربما لم أكن أعرف زوجي بشكل كافٍ، فهو لا يتعاطف، ولا يشعر بالجماعة التي من المفترض انتماؤه إليها. حتى إنه لم يفهم وفاة الرئيس على النحو الذي فهمه الناس يوم التقينا. إنه من غير انتماء، ولم يشعر بالخوف الذي كان يخرج مع زفير كل

سوري عقب الوفاة. كما بدأتُ أشعر ما إن أصبحنا في منزل واحد بأن في داخله مكانًا معتمًا يمنع عنه فكرة التعاطف. كنت قد شعرت بالمسافة التي تفصله عن عائلته، وهذا أمر أشعرني بالراحة في شخصيته قبل أن أتساءل حيال طبيعته التي لم ينجني منها. وقد أبعدني عنه أيضًا في مرحلة يصعب عليَّ تحديدها، لربما عندما تركته وحيدًا لعامين في بداية زواجنا.

كان خطئي أنني حاولت أن أداوي ما أجهل بالحب. وهذا ما أعرف اليوم أنه أمر غير ممكن. الحب يشبه النسمة التي تأتي للحظات خلال العمر، وتجاه أشخاص بعينهم، وهو عاجز في الواقع عن مداواة ما يجهله، كما أن للبشر طرقًا أخرى في التعاطي مع أزماتهم. غلَّف كارم ذاته عما يحيط بها. لم يكن ذلك الرجل يعيش معي بقدر ما كان هائمًا في عالم أجهله. ربما كان في اعترافه لي بوجود امرأة غيري في حياته عدوانية لم أفهم سببها، وقلت له في حينها:

ـ ولماذا تخبرني؟ هل لأعرف أن المشكلة لديَّ فقط، فأنت لديك مَن ترغب بك؟

ومن غير أن أبالغ لمست ألمًا في رده:

ـ أخبركِ كي لا تكوني مخدوعة، فصعب أن يعيش المرء حياته في الخديعة.

ربما كان يشير إلى الحياة المزدوجة التي وجد نفسه يعيشها. وقد جعل اعترافه لي من التفكير في الانفصال أمرًا أقل ألمًا. على الرغم من ألمي عندما أخبرني فأنا شاكرة له جرأته وصراحته، فقد ساعدني على أن أصير واضحة مع نفسي. وبعد أربعة عشر عامًا من الحياة مع كارم كان يؤسفني الاعتراف بأنني لا أعرف زوجي ولم أكن أعرف كيف يعيش. لمتُ نفسي لفترة لم تطُل لأنني كنت بعيدة عنه. ربما في فترة من فترات حياتنا كنت أعرفه. لكن الناس يتغيرون دائمًا. وكان عليَّ أن أُسلِّم بوحدتي كما بوحدة الجميع.

* * *

كانت حياة سليم محض جنون. ولا مناص من أن أعترف بأن الرجل الذي منحني كل شيء كان رجلًا معطوبًا عاطفيًّا. وبدأ يعز عليَّ أن أعجز عن مساعدته مثلما عزَّت عليَّ قسوة الدنيا. وبقيتُ خائفة عليه لأنني لن أستطيع أن أقدم له شيئًا، كنت خائفة من رحيله من دون أن أرد له دينه، لكن ماذا أفعل بالذكريات...؟ أصبحت أفكر أنني أريد أن أرد إلى سليم شيئًا حقيقيًّا غير

الأماني، وكل الأفكار التي كانت تخطر لي كانت تعيدني إلى وداد، ولم أكن أعرف أين أجدها.

ما إن رأيت سليم وحيدًا يخرج من غرفة العمليات، حتى بدأتُ أفرغ نفسي من فكرة العائلة. بدأت أحرر ذاتي وأفكر بحياتي. ربما كان مرض سليم فرصتي كي أبتعد عن قيودي، وكانت لي صديقة في الجامعة تملك فلسفة عجيبة في شؤون المرض والموت. تراها إشارات إلى تغيرات تجيء بها الحياة، فالموت مسألة تخص الأحياء. لكن تتبُّع رلى لعلم الإشارات خلق مسافة بيننا، وأصبحتُ أراها مهووسة بقراءات لم أكن أجيد التقاطها. بدا لي أنها تفقد عفويتها، فأي حدث تافه كان يعني لها شيئًا. في حين كنت أرى حياتي برمتها لا تحمل أي معنى. فكيف لحركة الكرسي وصوت صرير الباب أن يحملا المعاني؟ يجب ألا أنسى أن هذا كان يعزز منطقها الذي صارت له وجاهة في العالم الذي نعيش فيه، حيث لحركة الأشياء معانٍ لا يمتلكها الناس، وغياب المرآة في صباح امرأة وحيدة يثير رعبًا يماثل، وربما يفوق، وعيها بأنها امرأة تصحو وحيدة. فغياب المرآة هو ما نبَّهها إلى غياب مَن يخبرها شيئًا ولو بسيطًا عن جمالها.

عندما قصصتُ على رلى حكاية تعقُّب شاب لي قبل أن أعرف أن اسمه كارم، اعتبرته روحًا سوداء تتعقبني. وكثيرًا ما ضحكت لتشبيه كارم بالروح السوداء. لكنني لم أدرك أن في محاولة إقناعها بأنه يبدو إنسانًا جيدًا وحساسًا كنت أخسر صداقتها. ووجدت نفسي مضطرة إلى إخبار كارم برأي رلى. وكان ذاك أحد أخطائي. لم يكن عليَّ أن أسلمه مفاتيح عالمي كلها. هزأ كارم برلى، لكن ليس عندما أخبرته حكايتها. بل هزأ من صديقتي التي خسرتها بسببه بعد سنوات، وبالتحديد عندما حاولت إقناعه بإنجاب كميت، وبأن مرضًا عرضيًّا أصاب ليال كان إشارة كي نفكر بإحضار أخ لها، كي لا نتركها وحيدة. قال لي ما إن أخبرته عن خوفي من دلالة المرض:

ـ الله يرحم أيام الجامعة. لو فعلتْ رلى شيئًا جيدًا في حياتها، بدل قراءة الإشارات، لكنت اقتنعتُ معكِ.

لم أجد جوابًا مباشرًا لكلماته. لكن ترحُّمه على أيام الزمن الماضي بسخرية جعلني أشعر بالحاجة إلى الهروب منه. حتى إجابتي له آنذاك لو أراد أن يفهمها لكانت إشارة إلى الهروب:

ـ ومَن تستطيع أن تفعل شيئًا في حياتها وكل ما يحيط بها قريب من الانهيار؟

فجأة وجدتني أتحدث عن نفسي لا عن رلى، وقد كنت في جزء مني أحاول إصلاح زواجي عن طريق إحضار الأبناء. لكن وأنا أبتكر الحجج كي لا أبدو مكشوفة أمام كارم ضحك ضحكة ساخرة، شعرت معها بأنه لم يكن مهتمًّا بالأمر كله. كان عليَّ حينها أن أدرك أنه رجل لئيم، عدواني، مستهتر، ولا يَنسى. كان كارم روحًا سوداء، أو ربما أتجنَّى عليه. لقد صرنا بعيدين وأُحاكمه بهذه القسوة لأنني كنت متعبة ووحيدة معه، ومع ذلك قررت إنجاب طفل ثانٍ منه. ولم أشعر بأن لديَّ خيارًا آخر سوى الإنجاب كي يستمر زواجي به وأتجنب العودة إلى سورية. أعترف بأنني كنت أضعف من أن آخذ خطوة الانفصال، ولم يكن لديَّ مكان أعود إليه، فسورية التي عرفتها كانت تتلاشى يومًا بعد آخر.

بدأت أفكر بأن مرض سليم كان إشارة كي أغيِّر نمط حياتي. وحررني العمل لاحقًا من كثير من مخاوفي حيال الانفصال، حاولت أن أصنع استقلالية لي، ولم يكن الطفلان مَن أعاقا حرية قراري فقط، وإنما اعتمادي المادي الكامل على زوجي هو ما جعل قراراتي ضعيفة. كنت أقترب من عامي السابع والثلاثين عندما راودتني فكرة أن أترك العائلة. وكنت أكبر من وداد عندما تركتني بنحو أربعة عشر عامًا. أدرك أن حياتي أخذت المسار الموازي لخيارها هي. مضت حياتها في جانب وحياتي في الجانب الآخر.

بدأت وأنا أرافق سليم في مرضه أفكر بالاحتمالات التي كنت أرسمها لوداد. عرفت أن حنيفة حرقت صورها، وبقيت لها صورة واحدة بالأبيض والأسود كان الرجل العاطفي يحتفظ بها في جزدان الجيب معه. اعتقدتُ أنها صورة والدته في صباها وأخبرني، لم أعد أذكر في أي من مراحلي العمرية، أن تلك الصورة المعبودة هي صورة والدتي، التي لم يكترث أحد بأن يخبرني إن كنت أشبهها.

كانت حياتي مع كارم حياة هادئة غير أنه هدوء زائف. يخبئ عطبًا منع استمرار علاقتنا بهناء البدايات، أو ربما هكذا هي الدنيا. حكاية كلٍّ منا تشهد الذروة، ومن ثَمَّ تمضي إلى الأيام العادية. شجارات وهدنة ومشكلات على مسائل بسيطة، وهو ما يدعونه «الروتين»، وكنت أراه اهتمامًا. بينما الروتين السام بدأ عندما توقفنا عن الشجار وأخذ الهدوء والصمت يحطمان صِلاتنا، كما لو أن لكل منا حياته التي لم يكن الآخر يريد أن يعرف عنها شيئًا.

وفي غفلة عن الحب الذي جمعنا طويلًا، وربما بتواطؤ معه، بدأت الكراهية

تنمو بيننا في الخفاء. وكنت أنتبه إليها في نظرات كارم إليَّ عندما أقسو عليه في موقف، أو أتجاهله ولا أكترث لما يقوم به من أجلي، وأخمِّن أنه كذلك كان يشعر نحوي، لكنْ كلانا استطاع أن يلجم تلك الكراهية عن التحول إلى سلوك عدواني. كانت الكراهية تنمو في اتجاه، والتصالح والعجز إزاء ما وصلنا إليه ينموان في اتجاه مقابل. ولذلك استطعنا أن نستمر من غير أن نصير والدين سلبيين في حياة طفلينا. لكن بالنسبة إليَّ كنت أعرف أنني لن أكبر برفقة كارم، وأنني في يوم ما سوف أغادره.

يوجد نوع من الناس يسعون في لحظة من لحظات حياتهم إلى تدمير ما بنوه. حتى إن الأطباء فسروا ظهور الكتل في صدري في تلك الآونة بسبب الأدوية التي أخذتها من أجل تدارك الخلل الهرموني الذي أصابني في الشارقة وتعالجتُ منه طويلًا. لكن الحقيقة التي أدركها أن فيَّ ميلًا قديمًا إلى أن أدمر ذاتي. السرطان تأخر ولم يأتِني بعد. ربما استعادتي لحياتي التي أريدها منعت المرض عني، فالكتل التي ظهرت كانت كتلًا حميدة. ولا أعرف أين الخطأ، في حدسي أم في الطب؟

أخشى أنني كنت في السابعة والثلاثين عندما بدأتُ أجتهد كي أعود بنتًا من غير تجربة. فالتجارب القليلة التي خبرتها أوصلتني إلى مكان سيئ. وكنت أنظر إلى نفسي وفي داخلي شعور بالمرارة لأنني أضعت حياتي التي كنت أتخيل أنني سوف أعيشها. ودفعتُ في سبيل العائلة التي أردتها كل ما لديَّ. وبدأت أفكر؛ بعد سنوات قليلة يمضي الطفلان إلى حياتيهما وأبقى مع كارم الذي لديه ما يشغله عني بصورة دائمة. ليست هذه النهاية التي كنت أريدها لنفسي.

وهكذا قررت أن أغادر، وألا أبقى وسط المصيدة التي أحط نفسي بها بكامل إرادتي لأربعة عشر عامًا. ومع تفكيري في المغادرة بدأت أفكر أيضًا وأنا أتجول في اللاذقية؛ لو أننا نعود جميعًا ونسكن بين بيوت ماخوس حيث الغابة والبحيرة والطيور، أو ربما نأخذ منزلًا في شارع بغداد. غير أن كارم لم يشعر يومًا بالانتماء إلى هذا المكان، وسيكون مستحيلًا عليَّ أن أقنعه بالعودة، خاصةً أن الجميع يفكر في الخروج من سورية حتى بعد خفوت صوت المعارك. فما بالي كنت أريد أن أعود! وقد داهمني الشعور بالوحدة كما لو أنها أحد أطفالي.

مرة وبينما أزيح ستارة النافذة وأعاود الجلوس أمام التلفاز بمنزلي في

اللاذقية، شعرت إلى أي درجة صرت امرأة وحيدة.

* * *

كنت أبذل جهدي لإبعاد فكرة هجري لعائلتي. وقد شعرتُ بأن ليس لي الحق في أخذهم معي إلى خياراتي الجديدة. كما لم أكن أعرف ماذا سوف أخسر في طريقي إلى استعادة ذاتي التي أشعتها في حياة ليال وكميت وكارم. وقد أرَّقتني الوحدة طويلًا قبل أن أرميها خارج حياتي الجديدة. وهكذا قررت أن أصنع نهاية لحكايتي مع العائلة من غير أن أؤثر على أفرادها. هذا ما اعتقدته بصدق. وما إن عدتُ إلى الإمارات حتى بدأت التخطيط كي أغادرهم من غير نهايات انفعالية وعاطفية. أنا لم أدمر عائلتي. أنا فككتها مثلما يفكك الخبراء الألغام، ولم أترك ألغامًا عالقة في حياة طفلَي مثلما فعلت بي أمي.

لم أكن أخشى مصيري. بل كنت أراه وجهًا اتضح لي يومًا بعد آخر أن له ملامح وداد، وقد أخذتْ بعضًا من ملامح رجل غامض لم أستطع تبينه، ولم أقوَ على الاعتراف بشبهه مع يعرب. كان الوجه يكشف لي الحال المريضة التي بدأت أعيشها، وقد بدأت أشك بأبوة سليم لي، وبدأت أفكر في العودة إلى اللاذقية المعتمة كي أنسج حياتي مجددًا. بينما كارم المأخوذ بالمساهمة في بناء مدينة تطمح لأن تكون بابل العصر بافتتاح أطول برج في العالم كان يتجاهل حياتنا الخاوية.

عندما عدت إلى الإمارات كنت خسرت العمل في «المركز البريطاني»، وسرعان ما وجدت عملًا جيدًا في مركز «الحوليات للترجمة». كان عمر كميت ثمانية أعوام وأصبحت قادرة على التأمين عليه وأنا خارج المنزل مع ليال أو مع المربية التي وجدها كارم بديلًا في غيابي. وسرعان ما بدأت أوطد علاقاتي في العمل.

أصبحت مرتاحة أكثر في حياتي التي كنت، للمفارقة، أخطط لمغادرتها، كما بدأ يصير لديَّ وقت خاص بي أطول من السابق. مع عودتي من زيارة سليم أصبحت أشغل نفسي أكثر وأسعى إلى تطوير حياتي العملية. كنت أريد أن أترك العائلة، وبدأت أفعل ما بوسعي كي لا أفرط برفاهيتي من جهة، وكي لا أحمِّلهم ثقل قراراتي من جهة ثانية. عشتُ في صراع البقاء والرحيل، وبذلت جهدًا نفسيًّا كبيرًا كي أبعد المقارنة بيني وبين وداد. ولذلك تأخرت خطوتي المحسومة بالانفصال أربع سنوات إضافية. أنا لم أترك طفلَي بسهولة، هذه

هي الحقيقة التي لن يستطيع أحد إنكارها.
أحببتُ عائلتي أكثر مما يتصور أحد.

* * *

كنت ضائعة، وبدأت أفكر في أنني أحتاج إلى وقت أطول كي أقرر ما الصحيح الذي عليَّ فعله. قد يكون عليَّ الانتظار عشر سنوات أخرى. يكون كميت دخل الجامعة وليال تكون أنهتها، وأتخلص آنذاك من طقس العناية بالآخرين، وأصير حرة. وكنت أخاف أن يمضي عمري وأنا أقلِّب القرارات في رأسي. لكن لم يتأخر سليم كي يشير إليَّ إلى الخطوة اللازمة كي أغيِّر مصيري. وهكذا بالنسبة إلى قرار الانفصال على الرغم من صعوبته، بدا ألا مناص أمامي من اتخاذه.

كانت شرايين نسرين تفضحها دائمًا، وكنت أشعر عندما أرى اضطرابها بنوع فريد من اللذة. في فترة من الفترات شعرت بأن نديم يتودد إليها، وسمحتُ لهذا أن يحدث، حتى إنني أحببتُ تودده إليها. كانت في داخلي رغبة في أن تجرب اضطرابًا من نوع مختلف. وكنت أعرف نديم، إنه وإن أقدم على التودد إلى زوجة صديقه ينسحب قبل نهاية العرض الذي يؤديه.

كنا نعيش في عالم زائف لكن له جاذبية بالنسبة إليَّ، ما جعلني أدرك أن تودد نديم إلى نسرين لم يكن توددًا حقيقيًّا، وإنما كان مجرد مباهاة أمامي. ولم أجد خيارًا يحافظ على صورتي المترفعة إلا أن أتجاهل حركات نديم الذي كان وغدًا بحق، يكتفي بالإثارة، وحياته نوع من اللصوصية الدنيئة. غير أن التواطؤ الذي اكتنفته نفسي بينما أتخيل نسرين تمضي إلى رجل آخر جعلني أعي أن ما بيننا كان في حكم المنتهي. وبدأتُ أتيح لها أن تستخدم جسدي متى شاءت، وكذلك كانت تفعل، غير أننا كنا روحين مفرغتين وجسدين باردين.

كانت ليال تكبر، وعالمي خارج العائلة التي استسلمتُ للعطب فيها كان يكبر أيضًا. حتى عالم نسرين بدا لي بعيدًا جدًّا عني، وقد بدأت تشغل نفسها أكثر مما مضى بشؤون ابنتنا. وكنا مرتاحين على ذلك النحو. لا أقول إننا كنا سعيدين. فالسعادة مثلها مثل الحب فكرة بدائية تدور في العالم الداخلي للبشر، ولا توجد خارجه بالصورة التي يتخيلونها. أما أنا فكنت تخليت عن السعادة منذ زمن لم أعد أتذكره، وبذلك شُفيت من الحزن. وبغياب النقيضين عن مشاعري صرت إنسانًا متوازنًا، وكان نجاحي في العمل نجاحًا مطردًا أبهر رؤسائي، وصنع لي أعداءً كُثرًا. في البيئات شديدة التنافسية النجاح أكثر ما ينجب الأعداء. حتى الأصدقاء يكون مشكوكًا بهم، ولذلك لم أكن لأستطيع التخلي عن صداقة نسرين بسهولة. مع مقتها لي فإنها الشخص الوحيد الحقيقي في حياتي. وكنت أحكي لها عن مشكلاتي في العمل ونجاحاتي، غير أن هذا كان يشعرها بالضيق.

كان مطلوبًا مني أن أبقى يقظًا خارج المنزل. ولديَّ أعذاري عن إهمال شؤون عائلتي. أحببتُ ليال وأحببت نسرين. وكنت أرى لديهما سكينة تعزلني عن الضغائن، إذ مع كل البرود الذي كنا نعيش فيه لم تحمل لي نسرين سوى

الحب. أنا متأكد من ذلك. وقد توقفت المشاعر فيما بيننا عن النمو عند تلك البوابة التي يعبر فيها الحب إلى الكراهية. ليس كل حب يعبر إلى الكراهية بالتأكيد، غير أن حبنا كان من ذلك النوع الخطر، ولفترات طويلة كان كلٌّ منا كلَّ أحد في حياة الآخر. لذلك لم أتجرأ على قبول فكرة خسارتها ولا هي كانت قادرة على قبول خسارتي. كما كان الاستقرار أمرًا متعذرًا في علاقة مضطربة تجمع امرأة عاطفية مع رجل عقلاني، يجهل البشر أنفسهم. وكانت لدى نسرين محاولة أخيرة كي تنقذ ما بيننا، فجاء إنجاب كميت تأخيرًا لسقوطنا في الكراهية. عندما أنجبتْ كميت كنتُ غافلًا عن طبيعة مأزقنا، وهي بدورها غفلتْ عن كونها ضائعة ليس لها جدارة إحضار روح إلى الدنيا. وفي اللحظة الغافلة تلك وبدفع من ليال جاءنا كميت، وهو مَن جعلني أختبر وجهًا أعمق للأبوة.

يوم ولادة نسرين لكميت كنت إلى جوارها في أثناء المخاض. أشفقتُ عليها، وشعرت بأن عالمينا أخذا بالاقتراب مجددًا. كانت تمسك بيدي وترجوني ألا أتركها. وقد حاول الأطباء تهدئتها، غير أن وجودي إلى جوارها كان مهمًّا بالنسبة إليها. لمست ضعفًا رهيفًا داخلها. كما أشعرتني بحاجتها إليَّ، وكانت تلك من المرات النادرة التي وصل إليَّ فيها ذلك الإحساس العذب بأنني أستطيع أن أساندها. مجددًا عدت إلى التفكير في احتمال أن نعود عائلة يسودها الوئام. وأدركتُ حينها الخطأ الكبير الذي اقترفته بغيابي عن ولادة نسرين لليال. كما أدركتُ ونسرين تمسك يدي وتشدني إليها أن فكرة العائلة تنشأ في لحظات مشابهة، وشعرت بأن المخاض الذي يؤلم الأم يربط المصائر على نحو لا فكاك منه. عرفنا أنا ونسرين وكميت تلك اللحظة العظيمة. وكان شعوري تجاه كميت شعورًا صافيًا وعميقًا ورهيفًا، وأخذ ثقله يزداد كلما كبر كميت من غير أن يصير شعورًا غير مرغوب. وربما صار شعوري بوجوده ثقيلًا مع الوقت لأنني بدأتُ معه أدرك أنني رجل عاطفي يتعلق بالآخرين، ويهتم براحة أحدهم وبتوفير ما يلزمه كي لا يبكي. قبل أن تؤكد لي نسرين أن الأطفال يبكون كثيرًا لأنهم يعبِّرون عن أنفسهم بالبكاء. أردفتُ رأيها برأي آخر شعرتُ بأنه خدشها وقد أكدتُ لها بدوري أن النساء كذلك يفعلن. غير أن كميت كان يضحك في أوقات كثيرة، وعرفتُ من نسرين أن الأطفال يضحكون كثيرًا لأنهم لا يدركون.

كانت كلماتي تجرحها بصورة مريرة. كانت تحبني، وكنت أحمق. لم أستخدم

سلطة الكلمات كي أعيدها إليَّ. كنتُ أعتقد أن التعبير عن الحب لا يحتاج إلى كلمات، وأحيانًا الكلمات تقتله. لم أكن أجيد التعبير عن نفسي أو عن الحب بالكلمات. وكنت أعتقد أن مسألة استمرار علاقتي مع نسرين مرتبطة فقط بشعورها. لم أكن أكثر من موضوع في حياتها، وكان لديَّ شعور بأنني مجرد موضوع عابر، لا أكثر. ولهذا كنت صامتًا أحاول أن أتصرف. لكن كل ما كنت أقوم به كان يبعدها عني، وخشيتُ أنني صرت أنظر إلى النساء جميعهن نظرتي إلى امرأة واحدة.

جعلنا كميت أقرب إلى بعضنا في الأوقات التي كنت أساعد فيها نسرين، وكنت أحب تلك الأوقات. ساعدني كميت في سنواته الأولى التي لم أعِشها مع ليال على اكتشاف جزء من شخصيتي. ونما إزاء ليال التي شهدتْ أعمق صراعاتنا شعور بالتقصير. وكانوا يدعونها بـ«المدللة». رماني كميت وليال كلٌّ في اتجاه؛ كنت مندفعًا إلى كميت وفي الوقت نفسه كنت أشعر بأن العامين الغائبين من حياة ليال جعلاني أجهل التواصل الطبيعي معها. لم أرفض لها طلبًا. وفي غمرة هذه التقلبات التي شعرت بضرورة إخبار نسرين عنها اكتشفتُ أنني أتحول إلى رجل حساس، وقلق، ومهتم بأن يفهم نفسه. في حين بدأت هي تفقد عفويتها.

كانت نسرين لَتحب رجلًا بالطبع الذي انتهيتُ إليه، أو كانت لتعطيه فرصة كي يتودد إليها. غير أنها لم تعُد تلك السيدة التي تأبه بتقلبات زوجها، وفي الوقت الذي عدنا لنتقارب فيه بعد إنجاب الولد الثاني، الذي كان مخططًا له أن ينقذ العائلة، بدأتُ أعي جيدًا أن المسافة بيني وبين نسرين أصبحت كبيرة جدًّا. وانتهى الأمر بأن نصبح برفقة كميت أشبه بموظفَين. ازدادت الالتزامات داخل المنزل وأصبحتُ أطالب نفسي بساعات عمل إضافية في الخارج. وقد نما إلى جانب العاطفة إحساس مفرط بالمسؤولية، وهكذا غفلتُ عن نفسي في مشاغل العمل لسنوات إضافية. عشتُ بقلب خالٍ.

نسيتُ نفسي وأهملتُ روحي، كما ازدادت علاقتي بنسرين تعقيدًا، وقد بدا إصرارها على العمل كي تتحرر من سلطتي عليها. وانتهت إلى امتلاكها جسدًا شهيًّا يطفح بالجنس من غير رغبة. باتت حياتها مقترنة بالاهتمام بالابنَين وشؤون المنزل، الأمر الذي بات يحطم رجلًا تنبَّه إلى حساسية كانت نائمة في داخله. كنت أريدها وكانت تصدُّني. حتى في الأيام الخالية، عندما طلبتُ منها ألا تنام في الغرفة عدتُ في وقت متأخر من الليل ووجدتُ نفسي أتجه

إلى غرفة ليال، وكانت نسرين لا تزال صاحية في السرير. لقد كنت سببًا في حزنها في ليالٍ كثيرة، اقتربتُ منها وقلت بصوت مخنوق:

ـ سامحيني.

ثم مددتُ يدي إليها، أمسكتُ يدها وتركتُ قُبلة دافئة داخل راحة يدها. وبدا أنني أثَّرتُ بها. مع ذلك نامت في سرير ليال، وللمرة الأولى في حياتنا كنا ننام كلٌّ في سرير. الأمر الذي تكرر كثيرًا. غير أن المرات الأولى تبقى عالقة في الذاكرة، وقد أخبرتني آنذاك بصوت ناعس حزين ومرتبك:

ـ أنا مرتاحة في جوار ليال، ولا أريد أن أثقل عليك أو أقلق نومك. أرجو أن تحاول فهمي.

ـ أنا أفهمك. ولكنني لا أستطيع فعل شيء.

ومثلما يحدث دائمًا، تركتها مرتاحة في قرارها، تمالكتُ نفسي وذهبت إلى سريري. أيضًا لم أستطع النوم. كنت حزينًا من أعماقي، وفي الآن نفسه عادت إليَّ كلمات فتاة الليل العابرة عن حاجتي إلى عشيقة بعد سنوات من نسيانها، وبقيتُ أتردد لأشهر بين فكرتَي العشيقة والزوجة. وقد صرت بمرور الوقت ومع إهمالي لجسدي كائنًا ذهنيًّا، يحيل البشر إلى أدوار ويحيل الأدوار إلى مفاهيم. ووجدتُ نفسي وأنا أفكر في العشيقة والزوجة أنوس بين فكرتين أخريين، وهما الفرد والعائلة. إلى جانب أنني كنت أعيش في مجتمع الوفرة في الإمارات، فقط عليك أن تختار وتدفع ضريبة اختيارك.

ولم أعرف ماذا أختار، وأي ضريبة أحتمل!

غاب ما يُلزمني بالاختيار، واعتقدتُ إمكانية عيش الدورين من غير أن أسيء إلى أي منهما. وهذه أوهام كنت أغذي نفسي بها كي أقنعها ببناء عالم يوازي عالمي الأساسي عِوض هدمه. كنت جبانًا، وأقدمت على الخديعة التي ما إن تحدث بين المحبين حتى تصبح الإساءة أمرًا واقعًا. في أوقات كثيرة كنت أجد نفسي أكبت رغبتي العنيفة في التحرر، وكبت الرغبة في التحرر أقسى ما يقدِم عليه المرء بحق نفسه، وأكثر ما يطعن بإنسانيته.

ذلك الكبت أكثر ما غيَّرني. أصبح مزاجي سيئًا وأنا في المنزل، وتسلل العنف بشكل تدريجي ومتصاعد إلى ردودي على نسرين، التي بدورها لم تحاول حتى أن تفهمني، حتى إنها من النساء اللواتي لا يغفرن. وقد وجدتُ العمل مَهربًا. وصرت رجلًا مقيتًا أكره أن أرى الناس سعداء في حياتهم، لأنني أشعر بأن لي الحق بأن أكون سعيدًا أيضًا. لا أنكر أن انفصال نسرين عني

حررني من نمط عيشي، ونجوت من الكراهية على الرغم من رحلة النجاة المؤلمة.

غرقت نسرين في عملها أيضًا، وعلى نحو تعزز بعد عودتها من النقاهة برفقة أبيها. كانت تفكر في تطوير العمل بصورة محمومة كما لو أنها كانت تعوض سنوات طويلة من العطالة التي استهلكت روحها. أصبحنا نجتمع في ساعات الفجر الأولى فقط. أدخل المنزل في الخامسة فجرًا، وتخرج منه في السابعة. وفي أغلب الأوقات كانت المربية هي مَن تجالس الابنَين أو يكونان وحدهما. في الساعات التي كنا نلتقي فيها أنا ونسرين لم يكن لدينا ما نتحدث عنه سوى أعمالنا، فإذا ما تحدثنا عن شؤوننا كنا نتشاجر. لم يكن أحدنا يسكت عن سلوك الآخر وعن سعيه الأناني إلى النجاح. ولم يتوقف نمو الإحساس المؤلم بأن شراكتنا باتت جزءًا من الماضي. حتى عندما كنت أقترب منها عادت لتشكو من المزاج السيئ بسبب اضطراب الهرمونات الذي رافقها، كما أصبح الأطباء جزءًا من حديثنا. كانت أيام العُطلات ملكنا، وكنا نقضيها نحاول أن نجتمع مثل العائلات على موائد المنزل. وكنا نضحك في بعض الأحيان وأصواتنا تعلو فرحًا بعد موقف طريف لكميت، أو بسبب غيرة ليال منه. كنا نبدو مثل الأسر السعيدة. لكنها أوقات قليلة في حياتنا وأخذت تقل تدريجيًّا.

عندما ازداد وعي كميت بما يحيط به من أشياء وأشخاص، أصبحنا نمضي أوقاتنا نفضُّ اشتباكه مع ليال، ثم بتنا نخرج من المنزل حتى في أيام العُطلات. كنا نمضي الوقت في المطاعم وصالات الألعاب. وصار منزلنا إذا ما اجتمعنا كلنا مكانًا لا يطاق لدويِّ الصراخ في أرجائه كافة. كانت نسرين محبطة وعانت اضطرابَ النوم، كما عادت إلى ذلك الطبع الذي يشعرني بالإهانة عندما أتقرب منها في أوقات ليست على مزاجها. كانت تشعرني بأنني أتحرش بها، وكنت بدوري أحاول بكل جهدي تجاوز ذلك الإحساس المقيت في داخلي. لكن مع تقدم العمر بي ازددت حساسيةً، وأصبحتُ أطالب نفسي بصورة مؤرقة بأن أعيش حياة جديرة بالعيش.

وهكذا، في غفلة عن الحب الذي جمعنا طويلًا، وربما بتواطؤ معه، بدأت الكراهية تنمو بيننا في الخفاء. وكنت أنتبه إليها في نظرات نسرين إليَّ عندما أقسو عليها في موقف، أو أتجاهلها ولا أكترث لما تحاول أن تقوم به من أجل العائلة، وأخمِّن أنها كذلك كانت تشعر نحوي. لكنْ كلانا استطاع أن يلجم تلك

الكراهية عن التحول إلى سلوك عدواني على نحو واضح. كانت الكراهية تنمو في اتجاه، والتصالح والعجز إزاء ما وصلنا إليه ينموان في اتجاه مقابل، ولذلك استطعنا أن نستمر معًا من غير أن نصير أبوين سلبيين في حياة طفلينا. لكن بالنسبة إليَّ، ومع الاستقرار في العمل، بدأت أقول لنفسي إن الوقت قد حان للالتفات إلى عالمي الداخلي المتهالك.

لا يسَع المرء أن يمسك الدنيا كلها دفعة واحدة، وكنت أود أن أمسكها حقًّا. وجدت نفسي من غير تفكير زائد أعود إلى الفتيات العابرات، كما نَمتْ لديَّ شكوك عن حياة نسرين العاطفية، إذ كانت تتستر على موبايلها عندما يردها إشعار ما، خصوصًا بعد عودتها من نقاهة والدها. وصارت علاقتنا الحميمة تسير بصورة سيئة من غير أن يشغلها ذلك مثل السنوات السابقة. أنا أعرف زوجتي. دخل أحد حياتها. أستطيع أن أجزم بذلك من غير حاجتي إلى دليل. أنا أعرف زوجتي، وكان هذا من حقها، فهذا هو منطق الحياة الذي كنت أدفعها إليه بصورة حثيثة حتى أقوى على التحرر منها. وعلى الرغم من إحساسي بالإهمال والإهانة فإنني كنت أعرف أن حياتها العاطفية لم تعد تعنيني. للأشياء طبيعتها، وكل مقاومة لطبيعة الأشياء تعزز ما ندَّعي مقاومته. وهكذا استسلمتُ لتيار الفتيات العابرات من جديد، وبقيت كلمات الفتاة البلغارية عن حاجتي إلى عشيقة تعود إليَّ بين فترة وأخرى. كانت تلك الكلمة التي تلتئم مقابل كلمة الزوجة تطربني. لكن كيف يحب المرء وكيف يعيش وهو يملك قلبًا معطوبًا؟

لم أعد أجد نفسي أهلًا للعاطفة وهذا أسوأ ما حصل معي. وبقيت لسنوات أود أن تحبني إحداهن. وكان سليم يعود إلى ذاكرتي مع حكاياته عن السيدة الغائبة. أستطيع أن أحدد أن تغيُّر نسرين قد بدأ مع مرض والدها. لم أناقشها في تسببها في خسارة عملها بما لذلك من خطورة في مدينة المستقبل، فعملية والدها كانت ناجحة، وكان بإمكانها أن تعود من دون خسارة فرصتها الجيدة في العمل. كما بدا أن إقامتها بعيدةً عنا لفترة قد غيَّرتها. عادت نسرين إلينا واحدةً أخرى، وكأنها تحمل ظلال قصة تؤرقها. افتقدها الطفلان، ولأكون صادقًا مع ذاتي، أنا لم أفتقدها. فقط قلقت عليها وعلى سليم الذي كنت أود له أن ينعم بنهاية هادئة. وكان هذا ممكنًا في بلد مثل سورية، فالرجل لا يحكي في السياسة من غير أن يمتلك أفكارًا مهادنة. وكما هو معروف في بلد مثل سورية يكون الصمت من أكثر المواقف شجاعة.

أعي أن المرء لا يملك سوى نهايته في هذه الدنيا، غير أنني في تلك السنوات كنت أريد أن أمتلك لحظات حياتي كلها. والحياة الملول التي عشتها طويلًا استنزفت قواي. لم أكن أرغب في الاستمرار في الحياة على نحو بائس. أصبحت أجد نجاحي في العمل نجاحًا خاويًا، وأدرك أنه لو لم تتركني نسرين لأنطلق في حياة أخرى لكنت انتحرت.

أنقذتني نسرين برحيلها عني. ولم يعد لنا ما يمكن أن نفعله معًا. كلانا كان يعرف أن الأيام التي تجمعنا قابلة للعد، وكلانا كان يعرف أن الآخر قد يدخل الشقة في يوم ولا يجد شريكه فيها. استطعتُ تأمين مربية لليال وكميت منذ سفر نسرين إلى سورية لثلاثة أشهر، السفر الذي وضَّح داخلها شيئًا، لا أستطيع أن أقول إن مرض والدها هو ما غيَّرها، كانت بدأت تلح في مسألة العمل ما إن ذهب كميت إلى الروضة، ثم خسرتْ عملها، وبدأت عملًا آخر. كان عليَّ أن أفهم أنها تطردني باضطراب من عالمها. وكانت في اللاذقية لثلاثة أشهر تفكر بهدوء في خطواتها. وسأعرف بعد سنوات أنها باتت تعتبر وجودها معي انتزاعًا لها من حياتها. ولم تعد تجد لي أعذارًا على ساعات عملي الطويلة، كما لو أنها كانت قد وصلت إلى قرارات نهائية.

لم تمنحني نسرين فرصة أن أتغير وأصلح شيئًا من حياتنا. أغفر لها هذا. وأغفر لها كل شيء، فأنا أحببتها لسنوات طويلة. خبرتُ علاقات وأنا أعيش معها في المنزل ذاته مع فتيات أنسى وجوههن وأسماءهن، وقد خرجن لي من البارات كما لو خرجن كي ينقذنني للحظات من اليأس. وخبرتُ عشيقات عديدات. لكنني لم أكن مرتاحًا وكان الأمر أشبه بإقحام العشيقات في حياتي إقحامًا. لم يكن لهن مكان في حياتي. كان العمل يستنزف طاقتي ويجددها في أوقات النجاح الباهر، والعائلة كانت تشدني إليها بدفء وألفة.

لم يكن لديَّ وقت كافٍ لنفسي. وبدأت أشك في طبيعتي وفيما أريد بالفعل، وما ينقص حياتي حتى تكتمل، ثم فكرتُ في أن الكمال غير موجود، وعليَّ أن أستسلم لحياتي كما هي. أردتُ بالفعل أن أعود إلى نسرين وأن ندافع عن حياتنا معًا. كان الأمل بأن نعود عائلة يسودها الوئام لا يفارقني. بينما نسرين كانت في غير وادٍ، كأنها كانت تقتص مني بسبب انشغالاتي عنها، وبقي الوقت الذي نقضيه مع طفلينا فقط وقتًا مقدَّسًا بالنسبة إلينا.

ما إن دخلت فتاة عابرة حياتي حتى صرتُ أستشيرها في كل شيء. وأصبحت تشك في حاجتي إلى استشارة نفسية أكثر من حاجتي إلى عشيقة،

غير أن العشيقة تعرف الأسرار، وكنت أرى العشيقات نبيلات لأنهن لا يستخدمن ما يعرفنه من أسرار ضد مَن يبادلهن الحب. كانت فتاتي العابرة آنذاك لا تقوى على الأذية، وتعرف أنها موجودة في حياة رجل متزوج، كان أنا، ورجل حر من زواجه بعد انفصاله العاطفي عن زوجته، وكان أنا أيضًا. عذبني هذا الفصام طويلًا، فقد كنت صادقًا في كلتا الحالتين.

وجدتُ في سلوك نسرين اقتصاصًا مني. كانت الزوجة تعتبر أن السنوات التي أخذني العمل فيها قد أخذتني منها ومن العائلة. وبدا اندفاعها إلى العمل وإصرارها على تحقيق النجاح فيه رسالةً إليَّ، مفادها أنها قادرة أيضًا على صنع النجاحات العملية وصنع رصيد مالي. رغبت نسرين في إثبات أنها قادرة على صعود السلم وتكوين علاقات مع أشخاص جدارتهم الوحيدة أنهم زملاء عمل من جنسيات عديدة. ولم أفكر البتة أنها كانت تخطط للخروج من حياتي من غير أن تكون محتاجة إليَّ.

رأيتُ نسرين تعيد ممارسة سيرتي في العمل من غير أن أمتلك الجرأة على الوقوف في وجهها. كما كنت أريدها أن تجرب ما جربته، وأن تصل إلى الفراغ الذي وصلت إليه. كنت أريد لها أن تنسج لي عذرًا من حياتها هي. نعم، أنا رجل أناني، أعرف هذه الحقيقة مع كل يوم يمر في حياتي. حتى إنني لم أكن مستعدًّا كي أجهد نفسي بالاعتذار أمام الآخرين، وكنت أميل إلى دفعهم لاختلاق أعذار ومسوِّغات لي عبر تجاربهم وأخطائهم، وكان يمكن لانهيارات نسرين أن تستمر لو لم ينقذنا موت سليم بعد أربع سنوات من إجراء العملية الجراحية.

مضت أربع سنوات كنت فيها متفرجًا على سلوك زوجتي مدفوعةً بغضب ما، وبصعوبة وإصرار كانت تبني الفراق بيننا.

أذكر جارًا لنا في ماخوس كان يتمشى صباحًا على سطح منزله مع ذهابي إلى المدرسة، وكنت أعود من المدرسة ولا يزال الرجل يتمشى على السطح. شاخ وهو يتمشى على السطح، وفي السنوات الأخيرة من دراستي كنت أعود متأخرة من اللاذقية، وكنت أراه يجلس على الكرسي في الزاوية الشرقية للسطح وينظر إلى بحيرة السد. لسنوات طويلة كنت أتساءل حياله. سألت سليم وأخبرني أن أبو عزت يعاني مشكلات قلبية، وأنه يروح ويجيء على السطح كي يُنشِّط دورته الدموية، وكان بعد ذلك يعرج على مادة علم الأحياء، وبعدها على مواضيع عديدة حتى أتوه عن سؤالي الأول عن حال الرجل.

في فترة من حياتي أصبح لديَّ فضول كي أتعرف عليه، كي أجلس معه أنظر إلى البحيرة، أو أسير معه على السطح سيرًا عاديًّا. وبدأتُ أدرك وأنا أنتظر انتظام حياة سليم إثر العملية التي أجراها تلك الرغبة الشديدة لديَّ في هدر الزمن. كما بدأتُ أدرك حاجتي إلى اختراع طريقة مشابهة لسير الرجل على السطح. وقد تحول في طفولتي وصباي إلى طقس ما عدتُ أتساءل كثيرًا حياله، بل كان طريقتي لأشعر بأن الحياة تسير في نظامها المعتاد. كما بدأتُ أطمح أن أصبح واحدة من علامات الزمن بالنسبة إلى مَن يحيطون بي، وكان السير وحدي شاقًّا عليَّ، ففكرت في ضرورة تربية كلب «هاسكي». كما بدأتُ أدرك أن هذا ما أحتاج إليه كي لا أشعر بالسنوات التي تتقدم، وكي أغيب عما يحيط بي من ألم وقسوة.

لم يخبرني سليم حكاية جارنا، بل عرفتها وأنا أجلس في انتظار كارم في مكتب القنصلية السورية في دبي. عندما سألني موظف الخارجية هناك ما إن عرف أنني من ماخوس التي يعود إليها وزير الخارجية في حكومة نور الدين الأتاسي، الدكتور إبراهيم ماخوس، الذي نجا من انقلاب حافظ الأسد على رفاقه وهرب إلى الجزائر حيث قضى حياته يعمل طبيبًا. وقد تعهَّد هواري بومدين بحمايته إثر خمس محاولات اغتيال لاحقته إلى هناك. وقد نعَتْه الجزائر ودُفن فيها من غير أن يتمكن من العودة.

كانت مسألة العودة تشغلني، وبدأتُ أتساءل عن أولئك الذين يموتون خارج أوطانهم، مَن يتذكرهم؟ ومَن يزور قبورهم؟ إنني أحزن من قلبي على مَن يُدفن خارج وطنه، لكن عندما يطغى الشر يصير مستطيرًا، هذا قضاء الله، ولا

نملك من أمرنا شيئًا.

سألني الموظف إن تغيَّرت حال أبو عزت، وهممتُ بأن أشير له إن كان يقصد حركته على السطح، فتابع الموظف في اتفاق ضمني على تمام المعنى بيننا، وأخبرني عن غياب أبو عزت بعد مشاجرة على تنظيم الدور في المؤسسة الاجتماعية العسكرية التي كان يعمل فيها، إذ تورط من غير أن يعرف في خلاف مع أحد المحسوبين على العائلة الحاكمة. رأيتُ الموظف بعد حديثنا ذاك، وكنت أتجنَّبه لأن تلميحاته في بناء القنصلية كانت مريبة وأثارت قلقي. ربما انتقل من القنصلية أو تقاعد. لم أرتَح له ولم أصدق تعاطفه، بينما أبو عزت تُوفِّي وفي ذهنه سورية القديمة.

* * *

في أحد الصباحات التي كنت أنتظر فيها أخبارًا من المستشفى، جاء إليَّ عامر، وهو قريبي. شاب منفتح، وقد وقف إلى جانبي وأنا أنتظر أبي في غرفة الانتظار، كما أحضر لي فطائر معه وأزهارًا لوالدي. وعندما خرج سليم من غرفة العمليات وجدتُ نفسي أحضن عامر، ثم بدأتُ أجري وراء أبي، ولحق عامر بي، فحضنته مجددًا. كانت أوقاتًا استثنائية، تحررت فيها من أكبر وساوسي القهرية في الاقتراب من الآخرين. وانتبهت إلى أن عامر يعرف كيف يهتم. كما أنه كان يتحدث ولديه تصور عن شكل الحياة خارج سورية، لكنه لم يشعرني برغبته في المغادرة، وبدا لي أنه يعرف ما يريد، ويعرف أين يضع خطوته القادمة. أغبط أولئك الذين يعرفون خطواتهم.

بالنسبة إليَّ حتى طريقة سيري لم تكن تعجبني. إلى هذه الدرجة كنت أمقت جسدي. كنت أرمي قدمَي كيفما جاءتا، وكان كارم يرى الطريقة التي أدفع بها قدمَي جذابة. وحقيقة الأمر هي أنني لم أكن أعرف المشي باتزان وكارم أحب جهلي. هذا ما أصبح يشق عليه أن يعترف به وهو ليس بالأمر الجديد عند الرجال، إذ لطالما أحبوا نساءً جاهلات ولديهم فلسفة أجهلها في ذلك. كما لا يستطيع أن ينكر أن خلافاتنا بدأت تزداد عندما ألححت على مسألة العمل وكان يريدني أن أبقى تحت جناحه.

كنت أحب مَن يعاملني على أنني خبيرة في شؤون العاطفة والجسد، مع أنني عشتُ امرأة الرجل الواحد، ولكنني أحببت الأحاديث التي كان عامر يبدو وهو يرويها لي كما لو أنه يستشيرني. لكثرة ما دفعني كارم إلى الاعتقاد بأنني

جاهلة، وجدتُ نفسي أعجَب بالرجال الذين يشعرونني بخلاف ذلك. حتى لو أنني أعرف أن هذا فخ أيضًا؛ أن يستمع رجل إليكِ وهو يعرف مقدار التهميش الذي عانيته معناه أنه يخبئ لكِ رميًا شديد الوقع نحو الوحدة. عندما بدأت مخاوف من ذلك النوع المرَضي تتسلل إلى عالمي بدأتُ أفكر في النجاة، فقد خشيتُ نفسي وأفكاري وأن أبدأ بكراهية الرجل. بدأتُ النظر إلى الرجال النظرة ذاتها، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحصل مع المرأة. كان محتمًا عليَّ أن أفكر في النجاة، وكنت أحتاج إلى أن أنجو من كراهية جنس الرجال، فأنا لا أريد العيش وحيدة أو ناقمة. وأسلوب عامر الودود جعلني أشعر بأنني قد أنجو من كراهية الرجل، إلى جانب اهتمامه بي وانتباهه إلى كل حركة أهمُّ بالقيام بها. ذكرني برجلَي حياتي؛ سليم الذي قارب النهاية، وكارم الذي قارب الفراق.

* * *

كان في داخلي جزء مطفأ وأضاءه الحادث الذي ألمَّ بسليم، مثلما أضاءه ابتعادي عن العائلة التي صنعتها. وجدتُ نفسي على الرغم من رعايتي لسليم أعود طفلة، ولم تكن مسؤولية رعايته تماثل مسؤولياتي العائلية، فقد امتلك سليم القدرة على أن يُشعرني برعايته لي بأسئلة طفيفة كان يسألني إياها عن هيئتي، وانتباهه إلى ازدياد طول شعري. إلى جانب أسئلته عن صحة بشرتي، وعن التأمين الصحي، وقراري بأن أعمل، وكان يسألني إن كنت مرتاحة. لم يكن رجلًا متطفلًا، بل كان يسأل بقدرٍ لا يحرج محدثه. كان يسألني مازحًا عن الشيب الذي بدأ يظهر في شعري. كان يعرف كيف يهتم، ولم أستطع أن أغفر لأي من النساء اللواتي كن في حياته أنهن تركنه وحيدًا.

بقي لديَّ الفضول لأعرف أسرار حياته العاطفية، وقلبي لم يطاوعني على استثارة هذا الجانب فيه، كنت أتركه يحكي ويحكي من دون أن أقاطعه ومن غير أن أسأل. حتى عندما كان يأتي على ذكر وداد كان يسارع إلى مواصلة الحديث. كان يعيش نهاية هادئة وأنا إلى جواره، وذلك أبلَغ ما كان يتمناه، أو هكذا كانت ظنوني.

عندما كنت أرتب منزل القرية قبل أن يخرجوه من المستشفى، لم أجد صورًا له مع أحد، ووجدتُ الخزنة في جدار غرفة حنيفة القديمة مقفلة. مع أنني في طفولتي أذكر وجود الخزنة المغلقة من غير أقفال داخل الحائط،

مدهونة بألوان الحائط السماوي ذاتها لتبدو خزنة سرية. لكن وجود الخزنات السرية المفضوحة على ذلك النحو يشير إلى أنها مخصصة للوثائق العادية. إلى جانب علبة حديدية كانت عماتي يضعن أدوات الخياطة فيها من إبر وخيوط ومقصات صغيرة. وربما كانت وداد مَن وضعت تلك الأدوات هناك. لا أعرف. لم أقع يومًا على أثر من آثار وداد في منزل العائلة الكبير.

كان منزل العائلة لا يزال كما في الزمن القديم. يكفي دفع الباب كي يفتح من تلقاء نفسه، فيدخل الزائر ساحة الدار التي تتوزع في أنحائها غرف كثيرة، بات بعضها بيوتًا مستقلة بعدما وسَّعها أعمامي قبل أن يغادرها أبناؤهم، وبقيت الغرفة التي كنتُ أسكنها مع سليم إلى جوار غرفة الجدة المتوفاة. وهما غرفتان مبنيتان من الحجر السوري الأبيض بأبواب ونوافذ خشبية لونها أحمر قانٍ. كذلك بدفعات عنيفة من الخارج يمكن أن يصبح الزائر داخلهما. تعاقبت أزمنة العسف والنهب وبقي منزلنا مشرعًا.

وأنا ألمح حياة سليم كنت أشعر بالشفقة تنمو في داخلي تجاهه. ظهرت الشيخوخة عليه، وقد استهلك عمره كاملًا في الانتظار. وبدأ يحرص على الفواتير القديمة، وعلى أوراق ملكية حقل الخوخ، وأرض القمح التي توسطتها شجرة العذر قبل أن تشيخ وتتهالك ثم يقطعوها في وقت ما. أهمل سليم دفاتره التي اهترأت جوانبها واصفرت أوراقها، وكان إلى جانب ملخصات التاريخ التي أعدها، لخص «قصة الحضارة» لويل ديورانت كاملة. بقي مهتمًّا بمفكرة يسجل فيها الأفلام التي شاهدها والأمسيات التي شهدها والمقاهي التي جلس فيها. وكانت لديه عادة غريبة، وهي أنه يهتم بأرشفة الأماكن التي كان يجلس فيها مع أنه لم يغادر اللاذقية سوى لفترات قضاها في دمشق.

أرشف سليم حياته تبعًا للأفلام التي شاهدها مع أصدقائه في منزلنا في اللاذقية، والكتب التي قرأها في صالة «عبد الله عبد» في المسرح القومي أو في المنزل، والأماكن التي جلس فيها مع بشر كُثر على امتداد عقود. لكن في دفاتره جميعها لم أجد اسم إنسان واحد. لقد عاش مع شعور أليف وغير نهائي بالوحدة.

مع وصولي إلى القرية أضفتُ مستشفى «السويد» إلى سجل أرشيفه على دفتر كان يضعه قرب سريره. وكان آخر كتاب قرأه قبل أن يسعفوه إلى المستشفى كتاب سيرة عن شكري القوتلي، وآخر فيلم شاهده لبطلته المفضلة جين مورو «مصعد إلى المشنقة»، وآخر مكان جلس فيه هو مقهى

جديد على الربوة مقابل قبر صديقه الروائي هاني الراهب، الذي أحبه سليم كثيرًا، وكان على اتصال دائم معه ويلتقيه دائمًا في زيارات الروائي إلى سورية في أثناء إقامته في الكويت. وقد أخبرني سليم الذي كان يسعد برؤيته أن لهاني قلبَ طفلٍ لم يحمل حقدًا إلا على المستبدين، وكان بسيطًا متواضعًا، محبًّا وعاطفيًّا، غير أنه كان عصبي المزاج، وحياته كانت نسيجًا إنسانيًّا من الألم والصدق. أذكر عندما نام في منزلنا في اللاذقية أنه استيقظ في الرابعة فجرًا كي يكتب، هذه عادته، وللكُتَّاب الجديين عادات صارمة في حياتهم اليومية.

عندما أشار إليَّ عامر إلى الزاوية التي كان سليم يجلس فيها عرفتُ ما تعنيه له بأن يجلس مقابل هاني، وكثيرًا ما كانا يجلسان متقابلين في منزلنا ويتحدثان. في الطريق إلى ماخوس قصَّ عامر عليَّ شكل حياة سليم، وبوصولي إلى القرية كان قريبي قد أنهى حكاية الرجل الأرمل الذي يحبه كل الناس، ويتعامل مع الجميع على أنهم أحفاده.

تُوفِّي يعرب وكفاح واحدًا بعد الآخر في شتاءين متتاليين، وبقيت لعلاقة فدوى مع سليم خصوصيتها. وقد جاءت إلى القرية للمرة الأولى في أربعين وفاة يعرب، الذي عارض بشراسة التئام فدوى مع العائلة بعد وفاة حنيفة. كان العداء بينهما من نوع لا يعرف الحدود، ولم يخفف الزمن ثقله، كما لو أن فدوى كانت تعرف عن يعرب ما لم يعرفه أحد على الإطلاق. ومن جراء صعوبات حياة فدوى في التأقلم والتعامل وبناء علاقات جيدة مع عائلة زوجها في حمص، انتهت إلى ذلك النوع من الناس الذي يزن كلماته كثيرًا قبل أن يقولها. كان لديها كثير من أسرار وداد، لكنها لم تكن تقول لي إلا اليسير. وكم جرحني أن أكون ابنة لامرأة وأتوسل إلى امرأة غيرها لمعرفة أسرارها. ومن غير أن أقصد أو أقوى على فعل شيء حيال سلوكي، كنت أتجنَّب فدوى التي بدأنا نراها في الوفيات.

يوم أربعين يعرب استُقبلت فدوى استقبالًا عاديًّا من كفاح، بينما انهار سليم بين يدَي أخته الصغرى، كما لو أن زمنًا بطوليًّا كان ينهار بينهما. كانت القطيعة بين فدوى ومنزل طفولتها قد امتدت إلى اثنين وعشرين عامًا. وبعد ذلك مضت تلك السيدة، التي دفع حضورها سليم إلى الانهيار، إلى حياتها مجددًا. هكذا يشرق الناس الاستثنائيون في لحظات استثنائية من حياتنا، ومن ثَمَّ يغيبون في ظلال حياة عادية. بالنسبة إليَّ منذ غادرتُ سورية صار الغياب

حدثًا عاديًّا، لم يحمل لي يومًا أي جديد، كما أنه لم يفاجئني قَطّ.

لا أعرف كيف اتفق على أن سليم رجل أرمل، ولا أعرف كيف ومَن اخترع وفاة وداد. مَن يغِب يجب أن يبقى غائبًا حتى لو انقضى جيله. لا أعرف من أجاز لهؤلاء، الذين يرون في سليم أنه رجل أرمل، قتْل زوجته، التي يشق عليَّ أن أقول إنها أمي على الرغم من كونها أمي التي لم أعرفها يومًا واحدًا في حياتي كلها، لكنني مع ذلك لم أستطع تجاهل الشعور الذي نشأ في داخلي من ورود فكرة وفاتها. كان إحساسًا مريرًا بالحزن لم أعرف مثله. كنتُ ابنة امرأة غائبة لا امرأة ميتة. لكنني لم أستطع أن أطلب من عامر أن يتوقف عن وصف سليم بالأرمل، وقد ذكر ذلك بصيغة بدت لي أنها نوع من التودد. ولو كانت تلك طريقته في التودد فهي غير لائقة.

أفكر فيما إذا كانت وداد تُوفِّيت بالفعل فهذا جزء غائب من حكايتها، التي باتت تكشف عن احتمال جديد، ربما يكون من بقايا ما أشاعته العائلة عن غياب وداد بعد هروبها، فالزمن يصنع مقولاته، وغياب وداد كان إحدى مقولات نسجتها أجيال عديدة.

كان عامر يبدو أكبر من عمره هادئًا ومتزنًا. يعرف كيف يرصف الكلمات ويأخذ مساحته من دون تجاوز. وغير ذلك كان مهتمًّا بي ومتردِّدًا في حركته من حولي، ما جعلني آلف وجوده إلى جانبي. حتى عندما اقترح أن يوصلني إلى القرية لم أتردد في قبول عرضه. كان هذا منطق الأشياء، لكن حتى منطق الأشياء كان يصعب عليَّ تقبُّله. أمضيت شطرًا من حياتي وأنا «أُعقِّدها» كما كان كارم يقول لي. وإحدى هواياتي، حسبما كان يرى، هي أن أعقِّد أبسط المسائل، وكنتُ أصعِّب الأمور على نفسي فعلًا لأنني كنت أستغرب سهولتها. وذلك مفهوم لمن يرى كيف صار أهله يعانون في تدبر أبسط سبل الحياة بعد سنوات الحرب الطويلة.

بعد عشر سنوات من الحرب لا يعود للناس ما يسعدهم من أعماقهم. غير أن كارم لم يكن يعاني معاناتي تلك، وصار لديَّ انطباع وسط عائلتي الصغيرة بأنني وحدي مَن نشأت في بلد صعب. الأمر الذي خلق بيننا تفاوتًا من نوع ما. كان كارم يعبِّر عنه بأن يصفني بـ«المُعقَّدة»، وكانت تلك الكلمة وصفًا بشعًا للغاية. أما ليال وكميت فمع ازدياد وعيهما حيال مجتمع الوفرة الذي نعيش فيه، أصبحا يميلان إلى الطلب من أبيهما أكثر مني، لأنني كنت أُقتر الأشياء المتوفرة، وأصعِّب المسائل عليهما من غير أن يفهما أسبابي.

أحبَّ كميت وليال سليم كثيرًا، فقد كانت لديه حكايات يرويها دائمًا، وقد أجاد إخفاء حكايته الحقيقية في حكايات أخرى. حتى إن ذلك ضلل كل مَن سمع حكاياته، ومَن عرفوه احتاروا إن كانت أحاديثه وقائع جرت حقًّا في القرى المغمورة تحت البحيرات السبع، أم أنها حكايات من خيال رجل أراد أن يدفن حكايته الحقيقية خلف عدد كبير من القصص المؤلفة عن بشر شجعان وحالمين وصلوا إلى مدن بعيدة وبنوا نجاحًا بعد آخر، بينما بقيت قرى وادي الرميم، ما غمره السد منها وما بقي، تضيء ذاكرتهم وهم يعبرون البلدان ويجتازون السنين. يتصالح البشر مع ماضيهم الذي لا سبيل إلى إعادته. سنوات تهرب منا وحيواتنا تُهدر من غير أن نشعر بانقضاء العمر.

في منزل العائلة، وبعدما خرج عامر كي يُحضر أغراضًا ومنظفات وجدتُ نفسي سيدة منزل كنت يومًا أصغر ساكنيه وأكثرهم حاجة إلى المساعدة، ما أشعرني بالرهبة. كنت وحدي، وحضرت ظلال الجدة التي كان يخشاها الجميع بينما كنتُ أحبها وأشعر بعطفها عليَّ، مع شعوري منذ ذلك الوقت بجرحها بسبب سليم. وكانت تنظر إليَّ في أوقات الصفاء نظرة ملامة شديدة، لم أشك في محبتها لي، لكن نظراتها نحوي كانت تشي بأنني بمنزلة ابنة الخطيئة. وكانت تستخدمني عندما كنا نجلس إلى مائدة واحدة كي تتواصل مع سليم، الذي كنت أشعر بأنها لا تحترمه. إلى جانب عطفها عليه واقترابها من عالمه كان سليم يعمل على خدمتها من غير أن تشير له، ومن غير أن ينتظر رأفة زوجات أعمامي. كان عالم الكبار عصيًّا بالنسبة إليَّ، وقد تشكل وعيي بتلك الصورة المليئة بالألغاز.

أخذتني خواطر كثيرة وأنا أخطو داخل المنزل، قبل أن أجلس على حجر الرحى الذي كنت أنظفه مع أبناء أعمامي من التراب ونكسر عليه حبات الجوز، ورحت أبعد التراب عنه. صار المكان برمته إرثًا. أذكر أنني لم أرغب في البكاء مع شعوري بأنني تعبت من حياة ليس بإمكاني أن أستسلم فيها. وبعد دقائق من تناوب الذكريات وجدتُ نفسي أخابر عامر، وما إن رد عليَّ حتى انطلقت في قول كلمات تائهة عن طفولتي المريرة في المنزل، قبل أن أتذرع بتذكيري إياه بما نحتاج إليه كي لا ينسى شيئًا ويضطر إلى معاودة الخروج. وطلبت منه أن يحضر فطورًا معه ثم ضحكتُ ضحكة خجولًا، وأخبرته عن شعوري بالجوع. أردت كسر اللحظات القاتمة للعودة إلى مكان بات خاليًا.

جاء عامر، وحملت بنفسي الطاولة الخشبية ووضعتها في مكان مشمس وسط ساحة المنزل، بينما أحضر هو كرسيين خشبيين، ثم جلسنا تحت شجرة الجوز نتناول إفطارنا بشهية لم أعهدها منذ زمن طويل. بدا أن عامر استطاع أن يحررني من الحزن الذي كان يحتلني. وهو ما استمر فيه خلال فترات تلت تعارفنا، فكان يرسل إليَّ رسائل مضحكة على الفيسبوك، ويهتم بأن يُدخل الخفة إلى روحي المثقلة بالقلق والأحزان. لا أعرف كيف تقاربنا ببساطة، لكن هذا حدث. وأعدُّه إنسانًا استثنائيًّا في حياتي، وقد قدم لي في مواقف قليلة ما لم يقدمه كارم طوال ثمانية عشر عامًا.

كان صعبًا عليَّ أن أبقى وحدي في المنزل من غير أن تسكنني نوبة بكاء كنت في أمَس الحاجة إلى مقاومتها. وكان عامر يدفع الخضار أمامي ويؤكد لي أنها خالية من المواد الكيميائية. كانت لديه صورة مسبقة عني، الأمر الذي جعله يعرف كيف يتعامل معي تعامله مع المغترب العائد. وكم أصبحت أرى البشر مضحكين. إنهم نماذج. ونادرًا ما يقع أحدنا على أحد استثنائي. وما إن يجده حتى يفقده، ولربما رحيل البشر هو ما يجعلهم استثنائيين، فالإقامة مع الآخرين تُذهب بريقهم وتُسقطهم في ظلال الرتابة.

طلبتُ من عامر أن يُعد لي الشاي بعد أن أنهينا فطورنا، وفعل ذلك بمحبة. بينما أبعدتُ الأغصان المتكسرة من جواري، وأخذتُ الكرسي إلى ظل شجرة الجوز، وتابعنا جلستنا وسط الإهمال والأتربة. بدأتُ أحدِّثه عن طفولتي البعيدة في المنزل، أخبرته عن جدتي حنيفة ومشاجراتها مع أطفال الحي. كما بدأتْ ضحكات خجول تتسلل إلى حكاياتي، ماذا كنت لأقول بعد مُضي العمر...؟

لقد عشتُ طفولة جميلة.

وهكذا غفلتُ في تلك الساعات عن أمر زواجي برمته، غفلتُ عن كارم الذي خفَّت وتيرة اتصالاته بي بعد الأسبوع الثاني من إقامتي، وغفلت عن طفلَي غفلة تامة. تحررتُ وأنا إلى جوار عامر في منزل العائلة القديم تحت شجرة الجوز من فكرة أن عالمي الداخلي كان ينهار، وأنني أشهد زلزالًا لم يكن لديَّ سبيل لمقاومته سوى أن أخرج مرتديةً بيجامة رياضية سوداء وأسير برفقة كلب «هاسكي» أبيض تحت ظلال أشجار «جكرندا» المنتشرة بكثرة في اللاذقية. والحياة التي صنعتها فيما بعد بدأت خاطرة بسيطة وأنا أشعر بودِّ عامر إلى جواري.

تحرري لساعات من ضغط الألم والأفكار جعلني أفكر في أنني أستطيع التحرر بالكامل من ضغط حياتي في الإمارات، كما بدأتْ تنمو في داخلي كل يوم حقيقة أنني كنت أعيش حياة لا أريدها. لم أعِ أنني كنت أشهد إحدى أكثر لحظات حياتي إلهامًا، وبقي منذ ذلك الوقت لعامر اعتبار خاص لديَّ. أتاح لي أن أثرثر بتلقائية وأضحك بصفاء، وأن أكون نموذجًا عاديًّا يسهل التعامل معه. وبعد جلستنا تلك بخمس سنوات تخللتها لقاءات كثيرة ومغامرات شتى شهدناها معًا، عرفني على الفتاة التي أراد الارتباط بها بشكل رسمي. وكانت لها ملامح فتاة من بلدان أوروبا الشرقية. أخبرني أنها الابنة الصغرى لطبيبة رومانية، ووالدها كان ممن أوفدوا إلى رومانيا بعد أن أُخرجوا من ألمانيا على خلفية حادثة ميونخ، فعاد الدكتور الجامعي بزوجة رومانية، ساعدت ابنتها عامر على الخروج من سورية، فالحياة في سورية التي كان قد مضى على عودتي إليها بصورة نهائية أربع سنوات لم تعد حياة ممكنة. وقد أردتُ له أن يبقى وأن نستمر في لهونا وفي تدريباته لي على الخفة. في الوقت نفسه سعدتُ من أجله، وكنت أثق بنجاحه أينما ذهب، حتى لو بقي في سورية لكنت واثقة من نجاحه، وإنما على الجميع أن يجرب الرحيل.

عندما غادر عامر إلى رومانيا كان قد مضى على وفاة سليم أربع سنوات جعلها قريبي أقل وحشة. غير أنه غادرني كما غادرني سليم بالموت، وكما غادرني كارم بالفراق، بابتسامات لطيفة. إلا أن مفارقة ساخرة ومؤلمة رماها القدر في دربي ولم أتعثر بها، فقد تزامنت عودتي إلى اللاذقية مع عودة قائد سرايا الدفاع إليها من منفاه الباريسي. لا أجد هذا مهمًّا، لكنه حدث. وما كان مهمًّا بالنسبة إليَّ أنني استعدتُ حياتي وأنا أبلغ واحدًا وأربعين عامًا.

كنت أمشي إلى بحيرة السد في الصباح أفترشُ الأعشاب، وأمدد ساقَي على أطراف البحيرة، من فوقي أشجار الصنوبر الخضراء وسماء ماخوس الصافية.

كنا جميعًا في المنزل في نهار عطلة عندما وصلت إلى نسرين مكالمة، عرفتُ أنها مكالمة مفاجئة من سورية بسبب اللهفة التي ظهرت على ملامحها. لكن بعد كلمات قليلة صارت ملامحها هلعة على نحو لم أعهده. لم تخبرنا من فورها، وضبطتُ نفسي عن سؤالها. عادت تهمُّ بأن تأكل معنا ثم أخبرتنا وهي تزدرد الطعام أن سليم تُوفِّي. وبعدها انهارت نسرين، ولم تتوقف دموعها حتى صعودها إلى الطائرة المتوجهة إلى اللاذقية.

رغبتُ في أن أكون إلى جانبها، غير أنها صدَّتني على نحو موجع، ولم أكن أعرف أنني لن أراها بعد ذلك اليوم إلا كي نرتب لانفصالنا، وشعرتُ بالإهانة في نفسي لأنني لم أعرف كيف أودعها. وقد توقفت الكلمات في حلقي. فاجأنا رحيل سليم، ويَصعُب عندما يرحل أحد مثله إيجاد كلمات تُوفيه. قلتُ جملة واحدة عندما كانت نسرين تجهز حقيبة سفرها، وكنت أساعدها مع أنها منذ سنوات لم تعُد تنتبه إلى ما أقوم به في جوارها، قلتُ عن سليم: «كان رجلًا طيبًا»، ورجوتها أن تنتبه إلى نفسها وهي في سورية.

أوصلتها إلى المطار بعد إلحاح ليال عليها للقبول بذلك، وفي طريق عودتي إلى المنزل عادت إليَّ ذكرياتي مع المتوفى، واختبرتُ ما يقوله الآخرون الذين يفقدون أحبتهم فتعود إليهم الذكريات الأولى معهم. كما حدستُ أن حياتنا سوف تتغير بوفاته.

عدتُ بذاكرتي إلى مسيري مع سليم في حقل الخوخ عندما حدثني للمرة الأولى عن زوجته وداد، وأخبرني بأن نسرين تربَّت من غير أم، وأنها لا تزال طفلة. وقد خبرتُ ما قاله لي على امتداد سنوات زواجنا الطويلة، غير أن الرجل منذ البدء سألني كيف سأتعامل مع الأطفال، وأخبرته بأنني سأمنحهم الحب وأترك لهم الحرية كي يُعبِّروا عن أنفسهم. كان جوابي تقليديًّا إلا أنه أعجبه. وفي أثناء إقامتي في اللاذقية وليال بعمر الأشهر عرفتُ من حديثه وارتباكه مع الشعور بالعجز أن نسرين شكتني إليه. كما حدَّثني بطريقته المعهودة في إيصال الرسائل على نحو غير مباشر عن حاجة الأطفال إلى مزيد من الحب، وحدثني عن حياته مع وداد طويلًا. كما رجاني على نحو مؤثر وصادق أن أعمل على أن تكون نسرين مرتاحة في إقامتها وحرة في التعبير عن مخاوفها من العيش في الغربة. وكنت صبيًّا جاهلًا.

كان كميت يبلغ اثني عشر عامًا وليال سبعة عشر عامًا، ولنا هيئة العائلة التي لطالما أرادتها نسرين، والعائلة هي مَن خسرت الجد، لكن نسرين أرادت أن تقول لنا إنها هي مَن خسرته، فخسارتها كانت كبيرة ولم تُتِح لنا أن نحزن معها. احتكرتِ الحزن، وغادرتنا كأننا كنا على خلاف. رمقتنا قبل أن تخرج من المنزل، وقد ألححتُ عليها كي أوصلها، غير أن ليال هي من دفعتها إلى القبول. قررت نسرين أن ترفضني من غير أن أعرف السبب، وهكذا وجدتُ نفسي معها في سيارة واحدة صامتين، نتجه إلى المطار وكلٌّ منا يعرف في داخله أنني لست الشخص المناسب لمواساتها.

بدأتُ أفكر في حياتي التي سارت من غير إرادة مني في اتجاهات لم أرِدها، وشردتُ عن نسرين التي كانت تنتحب إلى جانبي في الطريق إلى المطار من دون أن أستطيع قول كلمة واحدة، حتى هي كانت تنتحب بصوت مخنوق من غير كلمات. وبوصولنا إلى المطار لم يكن أمامنا مهرب من تلك اللحظات الثقيلة. احتضنتها وأردتُ أن أواسيها. هدأتْ، وطلبت مني أن أهتم بالطفلين، كما أخبرتني:

ـ سنكون جيدين في حياة طفلينا دائمًا.

وربتُّ على كتفها، ثم قلت:

ـ لا تشغلي نفسكِ بنا.

وكان عليَّ أن أعرف حينها أنها قد قررت الانفصال عني مع أن مخاوفها تجاه مصير الطفلين لا تزال قائمة. وهكذا ابتعدت عني خطوتين وغادرتني من دون أن تلتفت. عدتُ إلى المنزل، وحدست ما إن التمَّ كميت وليال حولي أنني سأعيش معهما بقية حياتي. جمعنا الخوف بسبب غياب نسرين عن حياتنا، وربما كانت تلك اللحظة من اللحظات النادرة التي شعرت فيها بأننا عائلة سورية، وقد جمعنا الخوف أكثر من أي شعور آخر.

سحق غياب نسرين وعيي، وكنت أستنجد بليال وكميت حتى نستطيع فعل ما يردعها عن قرارها، ويحول دون خسارتي إياها. لكنني كنت أدرك أيضًا أنني كنت أستنجد بهما كي لا أعود وحيدًا من دون نسرين، التي عندما كانت برفقتي لم أستطع فعل شيء حيال شعورها بالوحدة والتعاسة.

أعاد طفلاي شيئًا من ثقتي، وأنا ممتن لنسرين التي أنشأتهما، وممتن لهما لأن صِلاتي بها مستمرة من خلالهما. وسرعان ما بدأتُ أفهم سليم بن حنيفة،

الرجل الذي استمر ينتظر امرأته حتى الموت. منذ المرة الأولى التي غادرتني فيها نسرين كي تبقى إلى جانب سليم في محنته، تشكَّل لديَّ شعور بأننا لن نكمل دربنا معًا، وحتى قبل ذلك، عندما قررت أن تبقى لعامين في اللاذقية بينما كنتُ أكدح وحيدًا في الشارقة. غير أنني كنت أتجاهل أحاسيسي دائمًا، وكنت مُتغربًا عن ذاتي. الحياة فاجأتني، وطعنتني في العائلة وهو أكثر ما أوجعني، فالعائلة كانت أكثر ثوابت حياتي التي تصورت أنها لا تتفكك، وبدأت أواسي نفسي بمقاربات مهزومة درامية بأن العائلة وُجدت كي تتفكك. وكأنه لا يدرَك التئام العائلة إلا بتفككها، مثلما يفعل النسيان وهو يساعدنا على إدراك عمق الحب في الجهد الذي نبذله لتذكر لحظاته. نسرين هجرتني. ومضى جزء من حياتي في تذكرها والجزء الآخر في محاولات النسيان، ولا أعرف أيهما كان صدى للآخر.

مضت سنوات من دون أن نلتقي ومن دون أن أتوقف عن التفكير فيها.

* * *

لم تتركني نسرين عالقًا لفترة طويلة، فبعدما غادرت إلى سورية بعشرة أيام أخبرتني في اتصال هاتفي مؤثر أنها لن تعود إليَّ. وأعقبت بأنها ستعيش مع أهلها، من غير أن أعي عن أي أهل تتحدث بعد وفاة سليم. كما أخبرتني في مكالمة أخرى أنها ستجمع أصدقاءه كي يحضروا تأبينه في الأربعين، وفكرتُ في مفاجأتها. حضَّرتُ نفسي للسفر مع ابنَي لحضور تأبين جدهما، وكنت أريد لهما أن يشهدا مراسم اجتماعية في البلد الذي يحملان هويته وشاءت الأقدار أن يشهدا تأبين سليم. لكن لقائي مع نسرين كان لقاء شريكين منفصلين، وتساءلتُ في نفسي كثيرًا عن غياب الود بيننا. كما رأيت نسرين بحال جيدة، ما ترك لديَّ التساؤل الأكثر غرابةً أنها لم تكن فتاة منكسرة ولا مستاءة، ولم يكن الحزن ظاهرًا عليها. كانت مثل مَن يُرتِّب حفلًا، وكأنها كانت في انتظار ضيف استثنائي غيرنا، تنتقل بين أشخاص لا أعرفهم. وقد عرَّفتني على قريبها عامر الذي عاملني بلطف مبالغ به، وشعرتُ بخصوصيةٍ ما تجمعه مع زوجتي التي مضت إلى الناس تلاقيهم وتستقبلهم استقبال أهل القرى بالودِّ والكلام الحلو والاطمئنان على أحوالهم، تشكرهم على مواساتهم لها وتسألهم عن أبنائهم وأبناء عمومتهم. وكانت تذكر درجات قُربى ليس يسيرًا تفسيرها. رأيتُ نسرين لا أعرفها إلى جوار عامر، وكأن

وفاة أبيها أكثر أحداث حياتها إلهامًا.

كنتُ أنظر إليها مشدوهًا بما أراه، محتارًا ومباغتًا بالمسافة التي صارت تفصلنا. وكان واضحًا لمَن يرانا أن نسرين عزلتني عنها عمدًا. لربما الأمر الذي دفع سيدة إلى الاقتراب مني، وعرَّفتني عن نفسها بأنها فدوى عمة نسرين. وكنت ألتقي بها للمرة الأولى لكنها عرفتني، إذ بدوت من خارج الدائرة المتآلفة للمجتمعين أنظر إلى زوجتي حزينًا مباغَتًا، وقد تساءلتُ بصوت مخنوق أمام فدوى تساؤلًا بريئًا:

ـ وكأن المتوفى ليس والد زوجتي حتى تكون سعيدة هكذا!

قلتُ جملتي وأنا أنظر إلى نسرين التي بدا لي أنها تحررت من عبء طوته في داخلها سنين طويلة، وأردفت فدوى:

ـ وماذا أقول أنا؟ نسرين لم تقبل حتى أن أعزيها. لا أحد يمكن توقع سلوكه عند وفاة أشخاص مثل سليم.

ثم داخلَ صوتها حزن مرير، ولربما أيضًا دفعت نبرتي اليائسة بالسيدة كي تدعوني إلى الابتعاد عن المجتمعين، وقد يكون سلوك نسرين معها هو ما دفعها إلى أن تخبرني أسرارًا لم أكن أتوقعها مع حدسي الطويل باللغز المحطِّم في حياة زوجتي.

كانت نسرين تعتبر فدوى آخر من يجمعها بحكايتها مع وداد، ومع وفاة سليم، أرادت زوجتي أن تطوي ماضيها. وفهمتُ من فدوى أن نسرين كانت تمقتها لأنها لم تتعاون معها، بما يكفي، فترة مرض سليم، ولم تخبرها بالحقائق التي كانت تعرفها عن أمها وداد. لكن فدوى لم تكن تستطيع، وما لا أنساه ما حييت الانطباع المؤسف الذي تركته لديَّ السيدة فدوى بحزنها العميق.

ليلتها ابتعدنا عن المجتمعين، وعبرنا أطراف غابة السنديان باتجاه فسحة خالية. جلست فدوى على حجر بين الأعشاب وجلستُ مقابلًا لها. الوقت كان غروبًا والغابة هادئة من حولنا، وشعرتُ بأنها أجواء مثالية لارتكاب جريمة قتل. لا أعرف لماذا حضرني ذلك الخاطر، ربما بسبب الهدوء والأصوات المختلطة البعيدة للمُعزين مع آيات سورة يوسف التي تخرج وسط غابة موحشة فتؤنسها. لم ينتبه إلينا أحد عندما خرجنا من دائرة المجتمعين على مقربة من مقام الشيخ علي بن سلمان، وقد أخبرتني السيدة المتعبة بصوت متهدج مرتبك أن سليم ربى ابنة وداد كما لو أنها ابنته، من غير أن يقوى على الاعتراف بالشكوك حيال أبوته لها. ثم أخبرتني بشيء من التفصيل، ومن غير

أن تتوقف دموعها، بسبب الالتباس القاتل في حياة أخيها الذي فقدته وساندها دائمًا، ولم يُقبَل عزاؤها فيه. أخبرتني ملتاعةً عن ندمها بأنها لم تخبر سليم بأنها كانت على تواصل مع وداد لسنوات بعد رحيلها. قبل أن تنقطع أخبار وداد عنها بالفعل، فعائلتها غادرت حمص بالفعل إثر اعتداء يعرب ورفاقه في السرايا على منزل أهلها، ولم يعد لدى وداد ما يدعوها لزيارة حمص بعد الألم والأذى الذي طالها مع أسرتها. ثم إن آخر ما عرفته فدوى عن وداد يعود إلى فترة حرب الخليج بحسب كلمات السيدة فدوى، وقد تزوجت من جديد وسافرت إلى الكويت. كما أعقبت فدوى: «لربما كان سليم يعرف شيئًا عن إقامتها»، ما فسر لها علاقته القوية مع هاني الراهب، وانهيارات سليم مع عودة الروائي في ظروف صعبة من الكويت، ثم مرضه ووفاته بصورة مفاجئة، إلا أن الأخوين سليم وفدوى لم يمتلكا الجرأة على أن يتصارحا بما يعرفانه.

بالنسبة إليَّ وبينما كانت السيدة تتحدَّث عن والدة زوجتي، كنت أفكر في نسرين. وقد كان محكومًا عليها منذ البدء أن تنشأ نشأة ملتبسة بين سليم ويعرب. وسليم هو من كبح بمفرده، وبعاطفة نادرة حفظها للأم لا للبنت، ثقل الحكاية عن نسرين ابنة وداد طوال حياته.

كانت العتمة تزداد من حولنا، وقد أصبحت أصوات الليل تعلو في تلك الليلة الصيفية من ليالي اللاذقية. وكنت شردتُ عن السيدة الجالسة تبكي من دون توقف إلى جواري، ثم عندما انتهت دموعها وجدتُ نفسي أسألها:

ـ هل أخبر نسرين؟

ـ أنا لا أقوى على إخبارها، ولا أقوى على النصيحة بعد غياب أبطال الحكاية جميعهم، وربما من الأفضل للجميع أن نترك الماضي وشأنه.

وأنا أيضًا ضمن طبيعة علاقتي مع نسرين لم أكن أقوى على إخبارها. وهكذا توقف السر عن النمو عندي ولم أصارح نسرين بما عرفت. تركتُ الماضي وشأنه.

* * *

نمنا في غرفة الرجل المتوفى، وفي الصباح نهضنا بسبب أشعة الشمس التي طالت السرير حيث نمتُ أنا والطفلان، بينما نامت نسرين على الأريكة. عندما استيقظت لم أرَها في الغرفة، فخرجتُ وبحثت عنها في المطبخ المبني في ساحة المنزل ولم أرَها. كما لم يتغير المنزل منذ زيارتي الأولى له

قبل ما يربو على عشرين عامًا فيما عدا إحضار سليم غسالة جديدة، وتغيير براد «بردى» القديم، الذي كان في منزل أهلي في التل واحد يشبهه، ببراد جديد. بقيتُ أتأمل الهدوء الثري في عالم نسرين، أتأمل شجرة الجوز ودالية العنب وأصوات الريف البعيدة. أفكر فيها ولا أعرف إن كانت تعرف أباها حقًّا. والكلمات كانت تائهة في حلقي، ولم أتوقف عن أن أردد بيني وبين نفسي: «دعِ الماضي يذهب».

ثم جاءت نسرين وقطعت أفكاري. كانت تحمل في يدها أغراضًا ونهضتُ لأساعدها ما إن رأيتها قادمة في اتجاهي. عرفتُ أنها أحضرت الحليب من أحد بيوت القرية واشترت البن من الدكان كي تُعد لنا القهوة مع الحليب، ومن دون مبالغة وجدتُ نسرين سعيدة. اعتقدتُ أنها لا تزال تتصرف تحت تأثير صدمة الوفاة. غير أن ما يربو على ثمانية عشر عامًا من الزواج لا يترك أسرارًا بين الزوجين. فوجدتها تطمئنني بأنها خرجت من صدمة وفاة والدها، وبأنها أحبت الحياة في القرية، كما استرسلت في حديثها، وأخبرتني بقرارها البقاء في سورية كأنها تذكر تفصيلًا عاديًّا لا يحتاج إلى تعقيب مني. ثم أردفت بعد أن رأتني مصدومًا من غير أن أقوى على تبرير صدمتي بأنها تحتاج إلى البقاء: «حاجة عميقة». عبَّرت ذلك التعبير بالضبط. وفوجئتُ بكلماتها. كما أدركتُ أوهامي بأنني لم أكن جاهزًا للانفصال الذي كان بالنسبة إلى نسرين بمنزلة أمرٍ منتهٍ. كانت حياتي بعد انفصالنا لا تعنيها. ثم وجدتُ نفسي أقول:

ـ ربما تحتاجين إلى إجازة طويلة، لماذا لا ترتاحين من التفكير والقرارات؟ لن أقول إن كميت وليال يحتاجان إليكِ، لكن فكري، أرجوكِ أن تفكري.

ـ أمضيت سنوات وأنا أفكر وهذا هو قراري، لا أريد أن أكبر برفقتك.

لم تترك لي كلماتها الواضحة المقتضبة التي لا تحمل غضبًا ولا نقمة أو كراهية ما أناور من خلاله. وكنا استنزفنا فيما يبدو كل فرص التسويات التي يقوم بها الأزواج. لكنني أعرف أنني أحببت نسرين أكثر من طاقة أحد على احتمال مزاجيتها. منذ كنا نلتقي في بهو كلية الآداب غريبَين لا يعرف بعضنا عن بعض شيئًا، إلى لقاءاتنا في منزلها في بداية شارع بور سعيد عندما كانت تطلب مساعدتي في الشؤون التي تحتاج إلى رجل، ولقاءاتنا المرتبكة في الغرفة التي كنتُ أسكنها عندما كانت تقرر بلطفها أن تؤنس غرفتي بوجود أنثوي. منذ ذلك الزمان البعيد جمعنا رباط لم أكن أتصور أنه سيزول.

خلال الظهيرة أخذتُ الطفلين في نزهة إلى اللاذقية، وبقي في داخلي شيء

يلح عليَّ بأن نسرين ستعدل عن قرارها الذي مع توقعه بدا مفاجئًا لي. كما لم أكن أصدق أن أحدًا يجرؤ على البقاء وسط البلد الذي أنهكته سنوات الحرب. لكن بدا لي أن نسرين كانت تعود إلى طبيعتها البكر في القرية، وبذلك كانت تتصرف عكس طبيعة الأشياء التي ألفتها في غربتها. أنا أفهمها. ولذلك لم أستطع أن أكون صداميًّا معها. عندما تحدثنا بعد عودتي من اللاذقية أخبرتني أن قرارها نهائي. ولم أجد ما أقوله سوى استفسار فارغ إن كانت تحتاج إلى مال. ويا لها من سخرية! بعد ما يربو على عشرين عامًا من اعترافي لها بالحب، لم يبقَ ما نتحدث عنه سوى حاجتها إلى المال. وقد أخبرتني أنها وصلت إلى اتفاق مع مركز «الحوليات» على أن تستمر في العمل معهم عن بُعد، وستأتي بين الحين والآخر إلى الإمارات. هنا أيضًا وجدتُ لديَّ ما أقوله:

ـ إذا احتجتِ إلى التواصل المباشر مع أحد هناك، فأنا موجود.

ـ لا أظن أنني أحتاج إليك. تعرف الوباء غيَّر ظروف العمل في العالم.

صار واضحًا أن نسرين لا تريد مني شيئًا، وربما قلتُ شيئًا عنا أكثر خصوصية لا أتذكره. وربما أعقبتْ بأنها تبحث عن بلد ثالث للاستقرار فيه، فالحياة في سورية كانت بالفعل حياة شاقة. ثم صمتنا. وأتذكر صمتنا. وقد تأكد لي أن ما يشغلها هو الهروب. ووجدتُ نفسي أخبرها بعد لحظات الصمت عن زيارتي للشارع حيث غرفتي القديمة في المشروع الأول، وقد أخطأتُ بأن أخبرتها بأنني لم أعرف في أي بناء تحديدًا كانت غرفتي «وكأنها كانت غرفة تنتمي إلى الخيال»، عبَّرتُ ذلك التعبير بالضبط. استغربتْ جملتي الشاعرية التي لا أعرف من أين جاءت إلى لساني، ثم تابعتْ انشغالها بجمع أوراق النعناع كي لا تخربها الرطوبة مساءً أو ندى الصباح كما شرحت لي!

خلال حياتي كلها كان لديَّ هاجس واحد وهو أن أصنع مستقبلًا جيدًا للعائلة، وأصبح لديَّ اعتقاد أن نسرين مع تقديرها ما فعلته، فإن فكرة العائلة لم تعد تسيطر عليها، وأخشى أنها ارتدَّت إلى الماضي. وعرفتُ أننا مفترقان؛ أحدنا يخطو إلى الغد والآخر يرجع إلى منزل الأمس.

في جولة أحاديث ثالثة قبل أن أسافر وجدتُ نفسي أكشف أوراقي أمامها، وقد سئمت المسرحية التي كنا بطلين باهتين فيها، وأسألها إن كانت تجد حاجة إلى الانفصال ما دام يمكن لكل واحد منا أن يعيش في بلد، فومضت عيناها ذلك الوميض الذي ينبِّه الآخر إلى فكرة لطالما شغلته. نظرت داخل عينَي، لا إليهما بصورة مباشرة، بطريقة رغبتُ طويلًا في تجنُّبها، وكأنها

تخبرني بمعرفتها أنني لم أكن مهتمًّا بالفعل بأن أكبر برفقتها. كأنما ما تفعله لم يكن إلا دفاعًا عن حياتها. ثم أخبرتني بتكبر دَعِيٍّ بأنها لا تنظر إلى حياتنا من تلك الزاوية، بل فكرتْ في أن وجودها في سورية سوف ييسر على ليال الدراسة الجامعية إذا احتاجت إلى الدراسة في سورية، لكنها أعقبت جملتها الباردة بالقول:

ـ تعرف، كارم؟ لا يناسبك الدور العاطفي الذي تقوم به متأخرًا، إنه دور مقيت في النهاية، ولا حاجة إلى التعامل بطريقة درامية. تكفي ثمانية عشر عامًا من محاولة العيش معًا حتى لا يكون انفصالنا حدثًا انفعاليًّا. أرجوك، أعفِنا من هذه الدراما. دع الانفصال يجري بسهولة. تأخر اهتمامكَ بي كثيرًا، وأشك بمشاعرك بعد كل ما عشته معك. لا تزعل مني، أنا آسفة.

ـ لكن الانفصال ليس سهلًا، نسرين.

ـ بعد ثمانية عشر عامًا تخبرني ذلك؟ أرجوك، أرجوك، توقف.

ـ وكأنما أنا المشكلة. الانفصال دائمًا حدث انفعالي ولو حصل بعد ثمانية عشر عامًا أخرى.

ثم صمتُّ للحظات وقد شعرت بأنها لا تصدق ألمي، وتابعتُ حديثي:

ـ غير أنكِ محقة. أنا تأخرت في الفهم لأنني أمضيت حياتي مشغولًا في تحقيق رفاهيتك. دعينا ننفصل، إنني سئمتُ غرورِكِ الكاذب.

كانت كلماتي تلك، مع انتباه ليال إلى أصواتنا التي بدأ يظهر في نبرتها شيء من الغضب والاحتقار، كافية لنوقف حديثنا الذي حدث في ظرف غير مناسب. إلا أنني كنت متأكدًا أنها كانت تخفي عني شيئًا، ولم أسمح لنفسي، ما دمنا منفصلين عاطفيًّا، أن أسألها أسئلة خاصة. إلى جانب أنني لم أستوعب البرود العقلاني الذي نبتَ لدى زوجتي فجأة. في النهاية تبادلنا الأدوار، وهذا عادل، ويحدث في كل أشكال العلاقات، وقد دفعتني لامبالاتها المدعية تلك إلى أن أشمئز من نفسي. استطاعت أن تظهرني باستخدام كلمات قليلة على أنني مقيَّد بها، ودفعتْ كلماتها إليَّ دفعًا عدوانيًّا غير لائق. شعرتُ بأنني دميتها، واستطاعت أن تدفعني للسأم من نفسي، فغادرتُ صباحًا وأنا متأكد أنني لن أعود إلى ذلك البلد.

أمضينا ظهيرة هادئة، وليلًا نامت نسرين بين الطفلين بينما نمت أنا على الأريكة. وفي الصباح أوصلنا عامر إلى مطار دمشق، وهناك بكت ليال لفراق نسرين، وتعلق كميت بها وبكى. وقد رغبا في البقاء معها وقتًا أطول، لكن ذلك لم يكن مناسبًا، ولم أشعر بأن نسرين راغبة فيه.

لمست ليال شيئًا مما يحدث، والتقطت الكهرباء الساكنة التي كانت عالقة بين والديها. دخلنا جميعًا صالة الانتظار، وأبعدت ليال كميت عنا. لكن لم يكن لديَّ ما أقوله لنسرين سوى طلبي منها أن تنتبه إلى نفسها. بينما كنت أرمق

عامر الواقف على مسافة بنظرات حاقدة، تابعتُ تأكيدي لها:

ـ نحن ننتظركِ معنا في دبي.

قلت جملتي تلك غير صادق، وأعفتني من المجاملة بمصارحتي:

ـ سآتي بالتأكيد لأرتب حياتي من جديد.

ومن غير أن أفهم إصرارها على توضيح انفصالنا قلت لها ببرود:

ـ أوكي.

ثم انضممتُ إلى ليال وكميت اللذين اقتربا مجددًا وودعاها بحرارة، وبعد ساعتين أقلعت الطائرة، وغابت سورية عن تفكيري نهائيًّا منذ إقلاع طائرة ذلك اليوم.

* * *

لحقت بنا نسرين بعد عشرين يومًا امتلأت بالسجالات الهاتفية، وبدا أن العالم الصامت المشيَّد بيننا لما يربو على ثمانية عشر عامًا أوشك على الانهيار دفعة واحدة. لكننا ولأننا لم نعد أناسًا تلقائيين كنا نتجنب الانفجار الشنيع للصمت قدر ما استطعنا، ونتجنب أن نلتقي. نمتُ في الفندق، ونمتُ عند الفتاة العابرة التي كانت تريدني أن أقضي أيامي الأخيرة برفقة نسرين. بينما كنت أودِّع تلك الازدواجية التي أرهقتني. مع أن نسرين كانت تعرف أنني لم أعد وفيًّا لها، وكان بيننا منذ سنوات ذلك الاتفاق الضمني الذي قد يعرفه بعض الأزواج بأن لكل منهما عالمه. لكن مع انفجار اللغم الذي كان كل منا يحشوه في داخله، انكشف لكلينا أن ذلك الاتفاق الضمني كان محض وهم يساعدنا على تخفيف ثقل وحدتنا، وثقل السنين التي مرت من غير أن نعيشها كما يجب.

لم تطِق نسرين البقاء لفترة أطول في الإمارات. أرادت أن تغادر. أرادت أن تغادر. أرادت أن تغادرني. وأردتُ لها أن تبتعد وتنقذ نفسها من رجل توقف عن إسعادها من دون أن يتوقف عن حبها. أكان من حقي أن أريد لها الابتعاد؟ لست أدري.

لكنني كنت متأكدًا من أن وقوفي في وجهها في ذلك الصباح البعيد كان سيجعلني أخسرها مدى الحياة.

بعدما أخبرتني أنها حجزت في الطائرة التي كانت ستقلع إلى سورية مساءً، طلبت مني أن نجتمع مع الطفلين ونخبرهما عن انفصالنا. وهكذا مع مقدمات

أخذت ما يربو على ثمانية عشر عامًا وصلنا إلى هذه الخطوة، التي بقيتُ أراها خطوة انفعالية. وقد شعرتُ أمام سحرِ هدوء نسرين كما لو أنها احتكمت إلى شعور أصيل بالألفة، وقد توطد بين أشجار غابة السنديان وأشجار الصنوبر على أطراف البحيرة. كما وجدتُ نفسي أمام سحر هدوئها وكلماتها المباشرة الواضحة التي تخبرني فيها أننا منفصلان، أنادي طفلَي.

ناديتُ ليال وكميت، وأخبرتهما أن والدتهما سوف تعود لتعيش في اللاذقية. لم أشأ أن أجرحهما بإخبارهما مزيدًا من التفاصيل. ولم تضِف نسرين إلى كلماتي عن انتقالها للعيش في سورية. غمرت كميت سعادة كبيرة لأنه اعتقد أنها سوف تأخذه معها، وكتمت ليال غضبها. انتبهت نسرين إلى كتمان ليال غضبها، كما نبَّهتني في اتصال هاتفي إلى أن ليال تكتم مشاعرها وهذا أمر سيئ.

استمرت نسرين تهتم بهما وهي بعيدة، وكنا استأصلنا السرطان الذي نما بيننا. لكن مع استئصال الورم ذهبت أجزاء أخرى لم يعد يعرفها أي منا، كما بقينا متفاهمين إزاء ليال وكميت ولربما كان هذا نجاحنا الوحيد.

تجاوزت نسرين بسحر عهدتُه فيها لحظة الوداع القاسية، احتضنت ابنها وراحت تخبره عن الصيف في سورية، وعن الإقامة السحرية التي سوف تعدُّها من أجله هناك مع الطيور قرب البحيرة. كما احتضنت ابنتها وأخبرتها أنها ستكون إلى جانبها دائمًا، وأخبرتها بصوت متهدج خفيض: «ما إن يغادر الإنسان بلده حتى تصير كل البلدان متساوية»، ثم طلبت منها ألا تحزن.

وبينما كنت أتأملها كيف تصيغ مفاوضاتها معهما، عرفتُ الزمن الطويل الذي أمضته برفقتهما كي يكبرا ويصير لحديثها إليهما بعض من السحر. ثم لا أنكر أنني شعرتُ بمحبة غامرة أكنُّها لها لا تزال موجودة تحت طبقات من الأسف والشعور بفداحة الخسارة.

طلبتُ منها برجاء يشبه التوسل أن أوصلها إلى المطار، وأخبرتها أنني أخذتُ إجازة من عملي، فوافقت. وقد أمضينا الطريق إلى المطار ونحن نحكي لبعضنا، نحكي ونحكي. شعرتُ بأن الوقت لن ينتهي معها وكأنما كنت أتعرف عليها من جديد، ثم عندما حان وقت الوداع سألتني:

ـ لماذا لم تخبر الطفلين بانفصالنا؟

قلت بهدوء ومن غير تأثر مبالغ به:

ـ لأنني لا أريد أن أصدقه، ثم إنهما سوف يكتشفان الانفصال بطريقتهما ما دام كل منا يعيش في بلد.

صافحتها، وصعبَ عليَّ أن أقترب منها. ثم وجدتها تربت على يدي، تقترب مني، ثم تضمني بلطف وبتأثر. وأخيرًا أخبرتني بخجل وحيرة:

ـ أرجو لك حياة أكثر وضوحًا، وأرجو أن يطرق الحب بابك من جديد، فأنت تستحقه.

لم أستطِع أن أقول كلمة واحدة، خنقتني الدموع مع ابتسامة تشي بالحب لا بالسعادة.

ولوحت نسرين لي، وغابت بين حشود المسافرين. وقد عاد بي مشهدها تدخل وسط ازدحام الناس عشرين عامًا إلى الوراء. لكن هذه المرَّة شعرتُ وأنا أراقبها تبتعد بأن كل شيء بيننا انتهى.

عدنا غريبَين.

الفصل الرابع

حكاية وداد

جاءت نسوة من القرية وجاء معهن أطفال لا أعرفهم. أخبروني عن سيدة وضعت وردًا أبيض على قبر سليم، وبأنها جلست هناك ترتدي شالًا بنفسجي اللون. وكان قد مضى على وفاته عشرة أيام.

عرفتُ أنها وداد، ومن غير أن أعي ما يحدث في داخلي أردت احتضان الجميع من حولي، خصوصًا أولئك الذين رأوها. وشعرتُ بأنني أفتقدها أكثر من أي وقت مضى في حياتي كلها، وبأنني لن أقوى على مغادرة اللاذقية.

لم يكن إلى جانبي أحد أخبره بقراري، فاتصلت بكارم من فوري، وأخبرته بصوت واثق يقطعه ارتباك الدموع بأنني لن أعود.

اللاذقية

خريف ٢٠١٨ ـ شتاء ٢٠٢١

شُكر

إلى حسن ياغي.